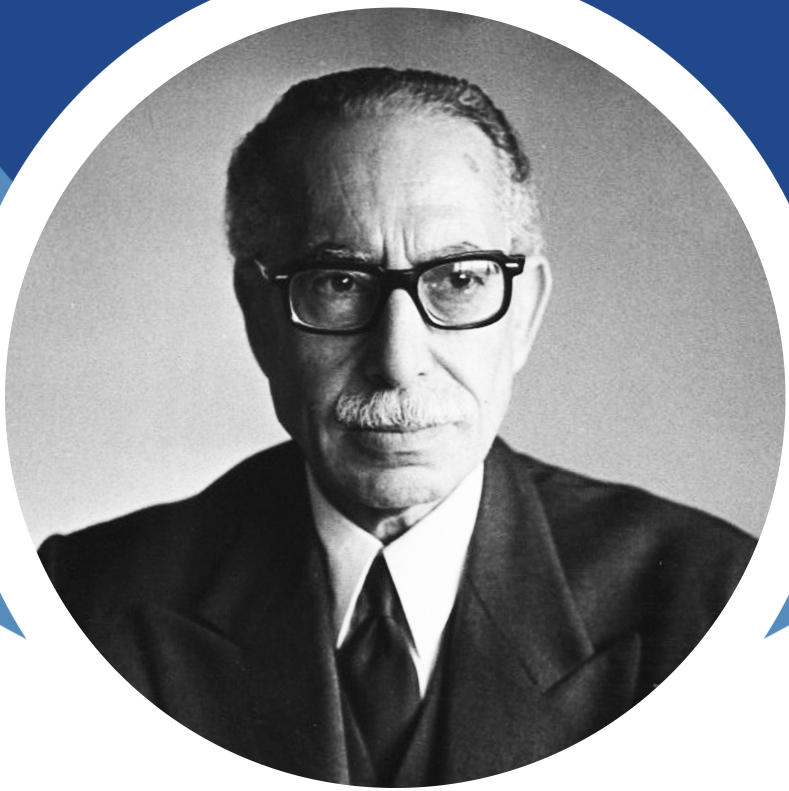

حماري
وحزب النساء

توفيق الحكيم

حماري وحزب النساء

تأليف
توفيق الحكيم

هنـــداوي

حماري وحزب النساء

توفيق الحكيم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩ ٣٩٠١ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٧٣.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٦.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ توفيق الحكيم.

المحتويات

حماري وحزب النساء	٧
حماري وعداوة المرأة	١١
حماري والمحكمة	١٥
حماري والجريمة	١٩
حماري ومنظري	٢٥
حماري وصورتي	٣٣
حماري والنفاق	٣٧
حماري والكفاح	٤١
حماري والجنة والنار	٤٥

حماري وحزب النساء

قال لي حماري وهو يلمح بعينه في إحدى الصحف خبر تأليف حزب نسائي: ما رأيك في الحزب النسائي؟ ... طبعًا لا بد أن يكون لك فيه رأي ... أليس كذلك؟

فأجبته قائلًا: أَمِن الطبيعي في نظرك أن يكون لي فيه رأي؟ ... لا بأس ... ليكن الأمر كذلك، وأظنُّه طبيعيًّا أيضًا أن يكون هذا الرأي في جانب حزب النساء ... ولم لا؟ ... إني رجل مظلوم ... ولسوف يُؤلَّف عني كتاب بعد موتي: «توفيق المُفترَى عليه» ... الواقع أني دائمًا أتمنَّى للمرأة تقدمًا ... ولا أختلف معها إلا في معنى التقدم؛ فهي تفهمها على أنها الجري في إثر الرجل واللحاق به ... وأنا على العكس: أرى الرجل هو الذي يجري وراء المرأة ... فالمسألة، فيما يظهر، لا تعدو مُجرَّد خلاف في الرؤية والنظر ... وحتى الآن لم يفتح الله على الجنس البشري بواحد ذي عينَين سليمتَين ليُبصِر لنا أيهما هو الذي يسير خلف الآخَر؟!

ولأسلِّم، على كل حال، بنظرية المرأة إثباتًا لحسن نيتي ... وَلْنَقُل إن الرجل هو المُتقدِّم، وإنها هي المُتخلِّفة ... وتفانيًا مني في إرضائها أقول: إن هذا التخلُّف يبدأ منذ نصف مليون سنة؛ أي من عصر الكهوف؛ يومَ كان الإنسان الأول يعيش حياة الصيد في الغابات، تاركًا أنثاه في كهفها، تُعنَى بصغارها، وتُهيِّئ مما صاد لها ولأطفاله طعامهم وطعامها ... لقد كان هذا التوزيع في العمل بأمرٍ من الطبيعة التي زوَّدت الرجل بعضلات قوية للكفاح خارج الكهف، وحَبَت الأنثى بالوداعة والرحمة والحنان اللازم للأمومة داخل العش.

ومرَّت آلاف الأعوام، وهذا التقسيم في أعمال الجنسين قائم — وإن كان الصيد قد تغيَّر — حتى اتخذ اليومَ ألوانًا جديدة، مثل: المال والجاه، والمنصب، والنفوذ ... إلخ، وتبدَّلت كذلك الأسلحة، فذهبت القوس والنُّشَّاب، وحلَّ محلَّها سلاح آخَر معنوي اجتماعي

ذهني، تُصَاد به كل تلك الأغراض، مما اصطلحنا على تسميته بـ «العلم والخبرة، والقدرة، والسياسة» ... إلخ. كذلك تغيَّر كهف المرأة فأصبح «شقَّة» نظيفة أو «فيلا» مريحة، تَخطِر فيها بأثوابها الأنيقة وزينتها البديعة، وتُعنَى بتنشئة أولادها على قواعد الصحة الجسمانية والخلقية.

لم تستطع إذن خمسمائة ألفٍ من الأعوام أن تُحدِث من التغيير في أوضاع الجنسين أكثر من ذلك ... ولقد لبث لكلٍّ منهما عالمه المنفصل، ومجال نشاطه المستقل طوال هذا القدر الهائل من الأحقاب ... الرجل له الخارج، والمرأة لها الداخل ... وأظن أن نصف مليون سنة مدة كافية لأن تُكيِّف طبيعة الإنسان؛ فإذا راق للمرأة اليوم أن تُغيِّر طبيعتها، وحَلَا في عينها أن تعمل ما يعمله الرجل، فتشتغل بأعمال الخارج، وتخوض بنفسها غمار الكفاح في ميادين السياسة والجاه والسلطان؛ فذلك موكول إليها، وكلنا نُرحِّب به؛ بل إني أناشدها أن تسرع منذ الآن ... ولتبدأ من البداية في الحال؛ حتى لا تُضيِّع وقتًا على من سوف يأتي في المستقبل من أجيال.

والاقتراح العملي لتحقيق ذلك، هو أن نبادر من فورنا، فنرسل حضرات سيدات الحزب النسائي إلى مجتمع فطري، يُشابِه مجتمع الإنسان الأول ... وأظننا نجد مثل هذا المجتمع الآن في غابات أواسط أفريقيا ... هناك نترك البعثة الكريمة لتضع أساس الحياة المنشودة ... وعليها أن تُعيد توزيع العمل من جديد على الوضع العكسي؛ فتتولى هي القيام بأعمال الصيد في الغابات، وتدع للرجل العمل داخل الكهوف ... ولننتظر نصف مليون سنة أخرى — وهذا ليس بكثير — حتى تتوالد أجيال جديدة من النساء المكافحات، يرفعن رءوس أجدادهن، ويُسطِّرن بمداد الفخار مبادئ الحزب النسائي المُوقَّر!

على أني أخشى أن يرى الحزب النسائي أن اقتراحي هذا غير عملي ... فمن الواجب إذن أن نفكر في حلٍّ آخر:

قد تقول لي بعض النساء المحترمات: لماذا لا نُجرِّب ونسمح لهنَّ منذ الآن بمقاعد في البرلمان؟ ... أنا شخصيًّا لا أرى مانعًا من إعطاء المرأة حق التمثيل السياسي في مجلس النواب «بالطبع جميع النساء متنازلات مقدَّمًا عن حقهن في مجلس الشيوخ». وزيادةً في تسهيل الأمر على إخواننا المحافظين المُتعنِّتين من الرجال، أقترح الأخذ بمبدأ أن «للذكر مثل حظ الأنثيَين»، فيكون لكل امرأتَين صوت واحد ... وأرجو من السيدات أن يتساهلن فيقبلن هذا الشرط مؤقتًا إرضاءً لغرور الرجال ... وإني على أتمِّ استعداد لمُعاوَنة المرأة والمُطالَبة

معها بهذا الحق على هذا الأساس ... إلَّا إذا اعترض حزبهن المُوقَّر بأن هذا الرأي أيضًا غير عملي، بحجة أن اشتراط صوت لكل امرأتَين يتطلَّب وجود امرأتَين في البرلمان يمكن أن تتَّفقا على رأي واحد ... وهذا بعيد الاحتمال.

مهما يَكُن من أمر، فإني راغب من كل قلبي في منح المرأة حقوقًا سياسيةً مساويةً لحقوق الرجل ... وأرجو أن أعيش حتى أرى اليوم الذي تتبوَّأ فيه نساؤنا مقاعدهن تحت القبة.

وهنا فليُسمَح لي بسؤال: هل ستكون لهن مقاعد خاصة باعتبارهن حزبًا منفصلًا قائمًا بذاته، أو أنهن سيدخلن على مبادئ أحزاب الرجال المعروفة ويمتزجن بها؛ كل واحدة ضمن الحزب الذي يُرشِّحها؟

إذا كان الأمر الأول، فلا شك أن حزبهن المستقل سوف يكون في الشئون النسوية صاحب الكلمة التي لا تُعصَى ولا تُرَد؛ فإذا اقترح الحزب النسائي مثلًا إعفاء «البودرة» و«الروج» و«الجوارب»، من كل ضريبة جمركية أو تجارية، فإن هذا الإعفاء نافذ بدون كلام ... والرجل الذي يجرؤ على المعارضة يكون مستعدًّا لنكد الدنيا يهبط على أمِّ رأسه؛ لا في البرلمان وحده، بل في بيته من زوجته أو أخته أو ابنته.

أمَّا إذا كان الأمر الثاني، فإني لا أرى فائدةً كبرى تعود على المرأة منه ... وأخشى مخلصًا أن تطويهنَّ مطامع الأحزاب الأخرى، فلا ينتفعن لأنفسهن بشيء.

لي بعد ذلك ملاحظة شكلية يجب أن تُوضَع موضع الاعتبار: لقد عاب أحد الشيوخ المحترمين على النساء المُوظَّفات حرصهن على زينتهن ... وأنا لستُ من رأيه ... إذ ما دمنا قد سلَّمنا للمرأة بحقوقها في الوظائف العامة، فلا بد لنا من السماح لها باستعمال حقها الطبيعي في «الأحمر والأبيض» ... وما أحسب أحدًا من زملائها في البرلمان يثير هذا الاعتراض يوم تتَّخذ مكانها فيه ... فإن الوجه النظيف، والتزيُّن اللطيف من أبلغ حجج المرأة ... وليس من الإنصاف أن نحرمها سلاحًا من أسلحة بلاغتها المأثورة في ساحة يتذرَّع فيها كل عضو بكل أدوات الفصاحة والإقناع.

وأخيرًا، يا حماري العزيز، فإني أُلخِّص لك رأيي في كلمة واحدة هي: موافقتي التامة على وجود المرأة في البرلمان، وفي كل مكان إلى جانب الرجل؛ لأن مجرد وجودها يُحدِث نشاطًا في الهمم، وتألقًا في الأفكار.

لقد قلتُ ذات مرة: «إن المرأة مثل القمر»، أقصد بمعناه الفلكي لا الشعري؛ فهي لا تُشِعُّ ضوءًا من داخل نفسها، بل تعكس الضوء الآتي إليها من شمس عقل الرجل … هي كالقمر «كائن سلبي»، وسطح مُعتِم في ذاته، لا تسطع إلَّا بما ينعكس على قلبها ورأسها من تفكير الرجل وإحساسه … فدُنُوُّها منه في مجال العمل المنتج، له من الفائدة ما يُعادِل فائدة المرآة إلى جانب المصباح … إنها تُضاعِف نوره، وتزيد إشعاعه.

أمَّا أن تنتظر منها أكثر من ذلك، فهو انتظارٌ للمستحيل … لن يكون للنساء في مجالسنا النيابية والاجتماعية أكثر مما للمرايا بجوار المصابيح في القاعات والصالات … ولقد بلغنا — ولا شك — في الحضارة حدًّا يقتضي أن نُزيِّن جدراننا بالبلور!

حماري وعداوة المرأة

قال لي حماري ذات يوم: لماذا انفردتَ بين الأدباء باحتقار المرأة؟

– ومن قال لك إني انفردت؟! ... هنالك العقاد.

– وهل يكره العقاد المرأة حقًّا أو يحتقرها؟

– هذا سؤال يَحسُن أن تُلقِيَه عليه ... أمَّا أنا فأتخيَّل أنه سيُجيبك صائحًا هذه الإجابة الوافية الشافية: أنا أكره المرأة؟! ... من يقول ذلك عني؟! ... حبِّي للمرأة أمر مقطوع به، ولم يكن يومًا موضع شك أو جدال ... فأنا رجل ظاهر السريرة، واضح النهج، حياتي صريحة ... لم يُسبَغ عليها قط رداء الغموض ... مودَّتي أمنحها أمام الملأ، وعداوتي أُعلِنها على رءوس الأشهاد ... فمَن ذا يستطيع أن يزعم أني وقفت تجاه المرأة موقفًا ينمُّ عن زراية أو بغضاء؟! ... أين بدا ذلك مني؟! ... ها أنا ذا أُلقي بقفَّاز التحدِّي.

ومع ذلك أُصغي أحيانًا إلى همساتٍ تتصاعد من قرارة نفسي أرجو ألَّا يكون لها صدًى يبلغ آذان النساء ... همسات تُنبِئني بأن المرأة كانت، في نظري، وتكون شيئًا لا يستحقُّ غير الامتهان:

زُرقة عينَيك لا صفاء فيها، ولكنه فضاء[1]
حُمرة خدَّيك لا حياء فيها، ولكنَّه اشتهاء
وجهك سبحان من جلاه ولوَّث النفس بالطِّلاء

[1] الاستشهادات الشعرية كلها من ديوان «أعاصير مغرب»، للأستاذ عباس محمود العقاد.

قلتُ ذلك حقًّا في المرأة، ولستُ أدري كيف أنشدتُه وسطرتُه ونشرتُه دون أن أُثير خصومةَ ذلك الجنس الخطر! ... السبب في ذلك بسيط: إني أُعامِل المرأة كما ينبغي أن تُعامَل؛ لا بالعقل الرشيد، ولا بالمنطق السديد ... أنا الذي حَذَقَ التحليل المنطقي، وبَرَعَ في التدليل العقلي، ووضع كل شيء تحت مصباح الطريقة الذهنية، وأخضَعَ كل بحث إلى الأسلوب الفكري؛ رأيتُ أن أَشِذَّ عن هذه القاعدة في علاقتي بالمرأة.

لم أُخاطِبها قط يومًا بغير لغتها ... لذلك فهمتني، ولم تَثُر في وجهي ... إني لم أصنع للمرأة تمثالًا مُموَّهًا بالقداسة الزائفة، ولم أُرِدْها كما يريدها خيال أولئك الشعراء الذين يركبون إليها القوارب الثملة، ويَمخُرون نحوها البحار البعيدة، ويبحثون عنها في الشواطئ المجهولة وهي منهم على قيد خطوة ... جالسة تنتظر، وتكاد أقدامهم تتعثَّر فيها وهم لا يبصرون ... كلا، إني أُبصِرها وأراها دائمًا كما هي ... وكما خلقها بارئها: فاكهة شهيَّة غضَّة ينخر فيها الدود ... فلنَنْفُض عنها دودها ونحن نُخفِي اشمئزازنا، ولنُطبِق عليها بأنيابنا، ونلتهمها بأفواهنا، ثم نطرحها جلدةً رثَّةً، وقشرةً باليةً ... هكذا أراد لها القدر ... فلماذا نريدها نحن على غير ذلك؟!

أنت المَلُوم إذا أردتَ لها ما لم يُرِدْه قضاء باريها

تلك نظرتي إلى المرأة ... لم أُوصِد دونها بابي يومًا ... ولم أُشِح عنها بوجهي ... لقد فتحتُ باب حياتي على مصراعَيه لكل امرأةٍ تدخل بسلام آمنة! ... كل النساء على السواء: ممن أُطلِق عليهن اسم الفاضلات، وممن حُسِبن في غيرهن ... ومن أنصاف أولئك وهؤلاء! ... لكن نوع المعاملة قلَّما يتغيَّر ... قد أُغيِّر وأُبدِّل أحيانًا في أسلوب الخطاب وأَردِيَة الكلام ومقتضيات المقام ... فتلك التي يُقَال إنها مثقفة، أُحِيطها بجوٍّ فكريٍّ يُنشِّط خيالها، ولا يُثقِل على طبيعتها ... ذلك أن طبيعة الأنثى في المرأة لها دائمًا المكان الأول؛ فلنلزم معها الحيطة، ولنتجنَّب الإملال والإثقال ... فما من امرأةٍ تُطِيق حمل رفيع الأفكار أكثر من قدرٍ بسيطٍ معلوم، يَحسُن أن تتخلَّله فترة مداعبات عاطفية، وتفاهات أو محادثات سطحية. أذكر ذات يوم أنْ زارتني امرأتان من طراز أولئك المُثقَّفات، فلبثنا نتحدَّث ساعة في بعض الشئون الثقافية، وشغلني شاغل، فانصرفتُ عنهما طرفة عين، فما عدتُ إليهما حتى وجدتُّهما تتحادثان في أنواع أصابع «الروج»، وأصناف طلاء الوجه والشفاه ... آه،

لو أنهنَّ — على الأقل — كنَّ يَطلِين بالثقافة الحقيقية أزواجهن بالمقدار الذي يطلين به شفاههن!

إني لا أقول لهن هذا الكلام ... ولكني أعمل أحيانًا ما هو أقسى من القول: إني لا أُحجِم عن إشعار المرأة وهي أمامي بأنها مخلوق تافه حقًّا ... ومع ذلك ... يا للعجب العجاب! ... إن المرأة تثور للكلام ولا تثور للفعال ... إنها تغضب لكلمة تسمعها، ولا تغضب لصفعة على وجنتها! ... وماذا أريد أنا أكثر من إذلالها بغير إثارتها؟! ... إني رجل يعرف الحب ... وقد أحببتُ على الطريقة التي تروق للمرأة ... أي ذلك اللون من الحب الممزوج بالتقدير والتحقير؛ فالإهانة أو الزراية هي المِلح الذي يجب أن يُوضَع في الحب ليكون له المذاق الذي تُسِيغه المرأة.

بعض الزراية نافع في حبهن فلا تُغَال

هكذا ظَفِرتُ بالمرأة؛ لأني عرفت سرَّها ... مفتاح سرِّها دائمًا في يدي، أُلوِّح لها به عند كل لقاء ... فإذا هي تبسِم صاغرةً، وتفتح لي مغاليقها من تلقاء نفسها ... إن المرأة ليست مغلقة إلا لذلك الذي أضاع مفتاحها! ... قد يسألني سائل: ما هو هذا السر؟ ... فأُجِيب من فوري: هو الخداع.

لا تَرُع من هذه الكلمة! ... هي عندنا — نحن الرجال — نقيصة، وهي عندهن غريزة ... منذ فجر التاريخ والمرأة تتزيَّن؛ أي تخدع ... لقد عُرِف الطلاء على وجه المرأة قبل أن يُعرَف على جدران الهياكل! ... وطلاء الجسم ملازم لطلاء النفس؛ بل إن النفس هي المنبع ... فهي بنزوعها إلى الكذب والتمويه تتَّخذ الجسم لها مَطيَّة ... ما من امرأة صدقت فتشجَّعت وبرزت سافرةً للرجل كي يعرف وجهها الحقيقي!

منذ آلاف الأعوام والمرأة تتنفَّس من إحدى رئتَيها بالهواء، ومن الرئة الأخرى بالرياء ... بل إن الرياء والخداع هما الأكسجين والهيدروجين في هواء كل امرأة! ... ولقد اتَّخذ الخداع على مَر الأجيال ألوانًا تُحاكي ألوان أثوابها؛ فهو تارةً بريء الغرض، كل مهمَّته أن يبهر البصر ... وهو تارةً رداء ضروري يستر عورة، وهو في كل الأجيال سليقة تنطلق بلا غاية ولا هدف ... لذلك ما فكرتُ يومًا في لوم امرأة لأنها خدعت، إنما كنت ألقاها قائلًا:

خَلِّ المَلامَ فليس يَثنِيها حبُّ الخداع طبيعةٌ فيها

وكانت هي تلقاني وعلى فمي ابتسامة الفاهم شأنها، المتوقع لكل خيانةٍ منها ... فما تبدو منها بادرةٌ حتى أُعاجِلها بقولي:

خُنها ولا تُخلِص لها أبدًا تَخلُص إلى أغلى غواليها

نعم ... المرأة لا تذكر كلمة «الإخلاص» إلا إذا ذكرتَ أنت كلمة «الخيانة». أمَّا إذا رفعتَ عقيرتك لتتغنَّى بالإخلاص، فإن دويَّ أغانيك وترانيم أناشيدك، وإن بلغت السماء، فإنها لا تبلغ أذنها ... وإن هي سمعت الكلمة، فثِقْ أنها نسيت المعنى ... تلك هي المرأة ... التي تلقَّنت درسها الأول من الحيَّة، ودرسها الثاني من الشيطان.

قلتُ لك إني أعرف الحب كما يحلو للمرأة، لا كما يحلو لأصحاب الخيال ... فاسمع مني النصح أيُّها الرجل: إذا أحببتَ امرأة فاصنع ما أقول لك ... لن أقول لك اليومَ بالطبع ما كان يُقَال قديمًا: «إذا دخلتَ على المرأة فلا تَنْسَ أن تُخفِي في تلابيبك سوطًا» ... كلا؛ فإن امرأة هذا العصر لا يُرعِبها الصوت، ولكني أقول لك: إذا لقيتَ حبيبتك فأَنشِدها:

حبُّك لا نعمةٌ أراها فيه، ولكنَّه جزاء
يا جنةً حُسنُها عقابٌ يا خمرةً عَذْبُها عذاب
متى متى ينطوي الكتابُ؟ متى فراقٌ بلا لقاء؟!

حماري والمحكمة

قال لي حماري ونحن نتذاكر الماضي يومًا: إنك قد اعتزلتَ خدمة الحكومة، ولا ريب أنك تذكر فيها مواقف لك، لا يمكن أن تحدث لغيرك!

فقلتُ وأنا شاخصٌ ببصري إلى الفضاء: حقًّا ... اليوم وقد أصبحتُ، بحمد الله، من أرباب المعاشات، فلا جُناح عليَّ من ذكر طرفٍ مما كان يقع لي أحيانًا أثناء خدمتي في وظائف الحكومة ... ولأتخيَّر لك عهد اشتغالي في سلك القضاء؛ فما زالت فيه حوادث يُذكِّرني بها من آنٍ لآنٍ بعضُ الزملاء السابقين ... من ذلك تلك الحادثة التي أرويها لك؛ فقد وضعتني موضع الحرج لحظةً من اللحظات:

كنت في كرسي النيابة العمومية ذات صباح، متَّشحًا بوسامي الأحمر الأخضر، وكان أمامي «الرول»؛ ذلك الدفتر الطويل الذي تُدوَّن فيه أرقام القضايا وأسماء المتهمين، والشهود، ومُلخَّص وصف التهمة، ومواد القانون ... إلخ، وبين أصابعي ذلك القلم الذي يجب أن أُدوِّن به الحكم الذي ينطق به القاضي في كل قضية، ولكن الحق يُقال: ما من مرةٍ دوَّنتُ فيها الأحكام كاملةً في ذلك «الرول»؛ فقد كان سكرتير المحكمة (الله يستره)، هو الذي يسُدُّ هذه الخانة بقلمه — تلطُّفًا منه وكرمًا — لثقته بأنه من غير المعقول أن أكون قد تتبَّعتُ كل القضايا بيقظة وانتباه ... على أنَّ من المُبالَغة أن أزعم أني كنت أشرد عن كل ما يجري حولي طوال الوقت ... هنالك قضايا وتفاصيل ودقائق كنت أُوجِّه إليها التفاتي ... لعلِّي كنتُ أعرف بالغريزة ما ينفعني كروائي مما لا نفع لي فيه ... إني ما كنت أُطِيق ثرثرة المحامين ... فالقضية التي فيها مرافَعة طويلة معناها عندي «غياب ذهن» طويل ... وربما حوار قصير بين شخصيتَين تافهتَين — في نظر المحكمة — يُثير

في نفسي كلَّ تأمُّل وتفكير. لقد سمعتُ في ذلك اليوم الذي أتحدَّث عنه، هذه المناقشة بين القاضي وخفير نظامي تعدَّت عليه امرأة بألفاظ جارحة.

القاضي: ماذا حصل يا خفير؟

الخفير: أنا واقف في دركي جهة نقطة الملموسات — يقصد المومسات — ضربتُ بعيني لقيت الحرمة المتهَمة خارجة من بيتها حاطَّة ...

القاضي: حاطَّة إيه؟

الخفير: حاطَّة، من غير مؤاخذة، أحمر وأبيض، ومتخططة، وفي رجليها الخلاخيل، ولابسة شبشب زحافي، وواقفة بين الجدعان في وسط الشارع، في حالة هزار وضحك وصهاليل بشكل مخالف للحشمة والكمال.

القاضي: وكيف تعدَّت عليك المتهَمة أثناء تأدية وظيفتك؟

الخفير: قلت لها عيب يا ملموسة ... ادخلي بيتك ... فما كان منها إلا أنها زغرت لي من فوق لتحت، وتقصَّعت وقالت: «اخرس يا غفير يا مصدي ... قطع لسانك! ... ده أنا لما أنفض شبشبي الصبح ينزل منه عشرين غفير زيك!»

فظهر الاستنكار على وجه القاضي، وظهر الإعجاب على وجهي ... إن هذه المرأة في نظره قد فاهت بأقصى ألفاظ التعدي ... وهي في نظري قد جاءت بأخصب صور الخيال الفني ... فما أظن هنالك أبلغ من هذه الصورة في تحقير خفير ... لو استطاع ذهن هذه المرأة أن يُبدِع صورًا أخرى في التجميل والثناء كما فعلت في التقبيح والهجاء؛ لكانت شاعرة ... ونظرتُ إليها وهي في قفص الاتهام؛ فإذا هي هادئة ساكنة، ويدها على خدها، ترمقنا بنظرات فاترة، وعلى شفتَيها ابتسامة، لعلها ساخرة ... إنها معترفة ... ولماذا يُنكِر شاعرٌ قصيدةَ هجائه؟ ... لقد روَّحت عن نفسها بما قالت، وكفى ... ماذا يهمُّ الثمن بعد ذلك؟!

تُرَى، ماذا في حياة هذه الساقطة؟ ... لا أقصد حياتها الظاهرة التي يعرفها الخفير ورجال الضبط، وزوَّارها وزبائنها؛ إنما أقصد تلك الحياة الخفيَّة في قرارة نفسها ... هنالك — ولا شك — أشياء كثيرة رأتها وأحسَّتها، ولا تُكلِّف نفسها مشقَّة التعبير عنها ... ولو أنها أرادت أو استطاعت لجاءت بأعاجيب؛ ذلك أنها ستصف الأشياء بطريقتها هي ولغتها هي ... ويا لها من طريقةٍ ولغة! ... لو استطعتُ أن أجلس إليها وأتلقَّى عنها! ... ليس أكذب من الروائي الذي يُفكِّر لأشخاصه بعقله هو ... ويتكلَّم عنهم بلغته هو ...

هذه المرأة مادة قيِّمة لي، ولكن ... أنسيت أني أُمثِّل الاتهام؟ ... نحن في الحياة قطبان لا يلتقيان ... وإن التقينا فحَول القفص؛ لأني أنا العِقاب، وهي الجريمة ... أنا السيف وهي الذبيحة ... لا يمكن أن نلتقي للتفاهم أبدًا ... لا تفاهم إلا إذا طَرحتُ عني وسامي الذي يُكبِّلني، وانطلقت حرًّا، أغترف من أعماق تلك الشخصيات كما يغترف المثَّال من الطين الذي يصنع به فنًّا.

ومضت بي الخواطر في هذا السبيل، وغمرتني، فلم أَدْرِ حتى بالزمن الذي مرَّ بي ... ولم أفطن إلى ما جرى حولي، ولا إلى ما نظرت المحكمة من قضايا ... ولم أتنبَّه إلَّا على صوت باب حجرة المداوَلة يُفتَح فجأةً، وقد ظهر الحاجب في حركة اهتمام سريعة وهو يحمل كرسيًّا وضعه إلى جواري، وهمس في أذني بقوة: سعادة البك مفتش عموم النيابات!

وقبل أن أُفيق إلى نفسي، دخل المفتش بسرعة، وجلس إلى جواري، وحيَّاني بصوت خافت ... ثم أراد أن يعرف رأيي في القضية المعروضة، فاصفرَّ وجهي ... أيُّ قضية؟ ... والتفتُّ أنظر إلى ما يدور حولي في الجلسة بعيون زائغة شاردة، فأبصرتُ أحد المحامين الفطاحل يُرغي ويُزبِد، ويضرب بقبضته في الهواء ويصيح: هذا كلام فارغ ... النيابة أخطأت في تكييف وصف التهمة ... لو أن النيابة فهمت الوقائع المنسوبة إلى موكلي على حقيقتها، لما قَدِم إليكم، يا حضرة القاضي، هذا المتهم مُكبَّلًا بكل هذه النصوص!

فمال مفتش النيابات يسألني عن المواد المُطبَّقة على هذا المتهم، فلم أَدْرِ ماذا أقول ولا ماذا أصنع ... وأنا لا أعرف في أيِّ قضية يتكلَّمون في الجلسة ويتناقشون ... وشاء سوء حظِّي أن يكون المحامي سفيه اللسان، فأمعن في الصياح قائلًا: هل هذه نصوص تُطبَّق في حالة موكلي؟ ... هذا تخبُّط من النيابة ... هذه فوضى ... هذا سمك لبن تمر هندي!

فاهتزَّ مفتش النيابات في كرسيه وانتفخت أوداجه.. وهمس في أذني بشدة: النيابة أُهِينت ... قُم دافع عن كرامة النيابة!

فقلتُ مداراةً للمسألة: كرامة النيابة في الحفظ والصون.

– كيف ذلك؟ ... ألا ترى النيابة متهمة بالخطأ والخلط والفوضى؟! ... المحامي يقول: إن النيابة سمك لبن تمر هندي.

فقلت له: أنا لم أسمع غير كلمة «تمر هندي» فقط.

فصاح صيحةً كاد يسمعها القاضي والحضور: لا ... لا يا توفيق بك ... هذه إهانة موجهة إلى النيابة ... يجب على الجالس في كرسيِّها أن ينهض لدفعها ... قُمْ، قُمْ وسجِّل احتجاجك ... وابسط وجهة نظرك في تطبيق نصوص القانون.

فقلت في نفسي: لو أنِّي كنتُ أعرف فقط نوع القضية! ... ولكن الموقف ساء من كل ناحية؛ فكان الدفاع بعيدًا كل البعد عن ذكر ما يُشَمُّ منه رائحة التهمة، مكتفيًا بالتهويش والتهويل والطعن في تصرُّفات النيابة والبوليس ... وكلَّما أمعن في ذلك، هاج مفتش النيابات وماج، وانهال على كُمِّي يكاد يُمزِّقه وهو يطلب مني القيام والكلام ... وأنا متشبِّث بمقعدي، مُصمِّم على القعود والسكوت ... وأصبح منظرنا — لمن يفهم موقفنا — يُبكي ويُضحك ... وقد فطن القاضي إلى الأمر كلِّه، وأدرك الورطة التي أنا فيها، وهو يعرف عاداتي جيدًا، ويحترم شرود ذهني دائمًا ... فابتسم ابتسامةً فهمتُها ... فتشجعتُ، وقمتُ أقول بقوة وحماسة: النيابة تحتجُّ على الألفاظ التي صدرت من حضرة المحامي.

فقال القاضي: المحكمة ترجو النيابة أن تُفسِح صدرها وتسمح للدفاع بكامل حريته، وهو لم يقصد قط، في أيِّ لحظة، أن يمسَّ كرامة النيابة العمومية من قريب أو بعيد.

وصادق المحامي على قول المحكمة بعبارة مجاملة، وجلستُ في مقعدي أتنفَّس الصُّعَداء وأقول لمفتش النيابات: ها أنا ذا قد رفعتُ لكم رأس النيابة!

ومرَّت الأعوام، وانتهى حضرة المفتش إلى أرقى المناصب القضائية في البلاد ... فكنَّا كلَّما تقابلنا وتذاكرنا الماضي، ضحك لموقفي ذاك طويلًا ... ولكنَّه ظلَّ برغم ذلك من المعتقدين بأني كنت — مع كل عيوبي — من خيرة رجال النيابة ... عافاه الله!

حماري والجريمة

قال لي حماري يومًا: لا شكَّ أن الكاتب الخالق يجد نفسه أحيانًا في حاجة إلى ترك عزلته الذهنية، والهبوط إلى طبقات الناس المختلفة، يدرس أحوالهم، ويجمع ما ينفعه مادةً لفَنِّه ... من أجل ذلك يتحتَّم عليه معاشرة أصناف متباينة من البشر ... ويستوي عنده الجلوس إلى العظماء والأثرياء، أو اللصوص والأشقياء، ولا يُفرِّق في الاختلاط بين الأجلَّاء والسفهاء، ولا بين الفاضلات والساقطات؛ الجميع في نظره نماذج من أشخاص تلك الرواية الكبرى التي تجري حوادثها كل يوم على مسرح المجتمع ... وهل يستطيع المؤلف الروائي أن يُميِّز في تقديره وعنايته — وهو يُصوِّر أبطاله — بين شخصية «الرفيع» وشخصية «الوضيع»؟ ... كلاهما في عُرفه وعمله يحتاج إلى عين الدراسة وعين الالتفات ... لذلك يَحسُن بالروائي الخالق أن يُصاحِب ويُخالِط كل المخلوقات على السواء، وأن يُراقِب ويدرس كل المهن والحِرَف والطبائع والغرائز.

فقلت له: رأيك هذا صحيح يا حماري العزيز ... ولقد قرأتُ من أخبار الروائيين في هذا الشأن ما يُثِير الدهشة والعجب ... من ذلك أن كاتبًا مشهورًا اتَّخذ صديقًا له ذلك اللص الأمريكي المشهور «آل كابوني»، وهي — ولا ريب — صداقة مفهومة المعنى والغرض؛ فقد كانت نتيجتها المحتومة ظهور كتاب طريف عن هذه الشخصية المخيفة العجيبة، يحوي أصدق الوصف لبيئةٍ كان يجب أن تُدرَس وتُصوَّر وتُبرَز لمصلحة الفن ومنفعة القضاء ... ولكن يا صديقي الحمار، فلنفرض جدلًا أني أردتُ أنا أيضًا إخراج كتاب، لا على نسق كتابي «يوميات نائب في الأرياف»، ولكن على نسق ذلك الكتاب الأمريكي، أُسمِّيه مثلًا «يوميات لص في القاهرة»؛ أدرس فيه عصابة لصوص بكل ما يُحيط بها من بيئة وظروف ... واخترتُ لتلك الدراسة لا طبقة اللصوص الأرستقراطيين الذين لا يقربهم القانون؛ فأنت في كنف هؤلاء بمأمن، ولكن اخترتُ أولئك الذين يطاردهم

البوليس في كل مكان ... أردتُ أن أُصوِّر هؤلاء الخَطِرين الخارجين على المجتمع وقوانينه، فاتصلتُ بهم وجلستُ إليهم، وسمعتُ ما يدور بينهم من مؤامرات، وعَلِمتُ أنهم مُقبِلون على ارتكاب جريمة سطوٍ على بنكٍ من البنوك في ليلةٍ من الليالي. واطمأنَّ إليَّ هؤلاء القوم، وأمنوا جانبي، ووَثِقوا بشرفي، فوضعوا أمامي الخطة ... إلى هنا لا جُناح على مثلي في نظر القضاء؛ فليس كلُّ ذلك بعدُ سوى أعمال تحضيرية غير مُعاقَب عليها ... ولكن ليلة السطو جاءت ... فتردَّدتُ هل أذهب معهم أو لا أذهب؟ ... إذا أنا لم أذهب فقد خسرتُ دراستي؛ فالفائدة كل الفائدة، من حيث الفن الروائي، هي في حضور واقعة السطو نفسها ... كما أن قيمة الشريط السينمائي لجريدة الحرب المُصوَّرة، هي في التقاط وقائع الميدان بذاتها ... لا بد من الذهاب معهم إذن، ولو تعرَّضتُ للخطر ... وقد ذهبتُ مدفوعًا بوسواس شيطان الفن ... وهنا المصيبة ... فقد هجم اللصوص هجمتهم على باب المصرف، فتنبَّه الحارس وتعرَّض لهم ... فانبرى له أحد أفراد العصابة، أعرفه بشخصه، ورأيتُه رأي العين، وقد طعن الحارس المسكين بمُديةٍ طعنةً أردته قتيلًا، وأتمَّ اللصوص عملهم ... وانتهبوا الخزانة وانصرفوا، وانصرفنا ... يا للكارثة! ... إنها جريمة سرقة بإكراه، اقترنت بقتل عمد ... إنه الإعدام! ... إنها المشنقة لا أكثر ولا أقل ... ما مركزي في كل هذا؟ ... أنا في نظر القانون شريك من غير جدال؛ فقد لازمتُ العصابة في كل أدوار الجريمة؛ من أعمال التحضير إلى أعمال التنفيذ ... من أول التصميم الجنائي إلى القتل واستلاب الخزانة في أمان الله ... انصرفتُ إلى شأني أُفكِّر في الأمر، وانصرف زملائي بالغنيمة يقتسمون النقود ... وجاء الغد، وإذا الصحف كلها تنشر بالحروف الطويلة العريضة: «**جريمة مروعة فظيعة**»!

وجَدَّ رجال الشرطة في البحث، وانهمك رجال النيابة في التحقيق، ووالت الصحف ملء الأعمدة بأخبار الحادثة وتصوير ظروفها ... وجاءوا بالكلب «هول»، وأُخِذت البصمات وأُجرِيت المعاينات، وأُلقِي القبض على كلِّ مَن حامت حوله الشبهات ... كلُّ ذلك كنتُ أُطالِعه في حجرتي باسمًا هادئًا، كأنِّي أُطالِع قصة بوليسية خيالية؛ بل إني كنت أتتبَّع كل ذلك ضاحكًا أحيانًا؛ للفروق الكبيرة بين ما حدث بالفعل، وما تصوَّر المُحقِّقون أنه وقع ... إنها لذَّة فنية أحسستُها لأنها لأول مرة وأنا أرى الواقعة الواحدة من وجهَين: الوجه الحقيقي الذي لا يعرفه غيري وأفراد العصابة، والوجه الآخَر الذي يُنشَر على الناس في الصحف ... هنا ينكشف الستار أمامي عن لعب المُخيِّلة البشرية وعملها في تكييف الحقائق ... وهنا أتمتَّع متعةَ طارح الأُحجيَّة أو «الحذورة»، المالك مفتاحها، وهو يستمع

إلى تخبُّطات وتكهُّنات الآخرين، فأمتحن ذكاء الطبيب الشرعي، وحذق البوليس السري، وفطنة القائمين بالتحريات ... ولقد ابتسمتُ عندما قرأتُ أنهم قبضوا على شقيق زوجة الحارس القتيل؛ لحدوث مشاحنة بينهما في الليلة السابقة على الجريمة، بخصوص سلوك الزوجة المريب ... ومرَّت الأيام، وزُجَّ في السجن بكثير من الأبرياء رهن التحقيق، ثم خَفَتَ صوت الحادث رويدًا رويدًا، فلم تَعُد الصحف تُعنَى به ... وأشارت صحيفةٌ آخرَ الأمر بأن التحقيق كاد يُغلَق، وأن القرائن كلها متجهة نحو شقيق الزوجة، وأنَّ التهمة قد وُجِّهت إليه؛ لأن صحيفة سوابقه بها جرائم مماثلة ... ولأنه متصل بالحارس؛ فهو أقرب الناس إلى العلم بمسالك البنك وأسراره ... ولقرائن أخرى من هذا القبيل، اجتمعت كلُّها وانصبَّت على رأس هذا المتهم البريء.

هنا تيقَّظ ضميري الإنساني، وجعل يهتف بي أنَّ من واجبي التبليغ في الحال، وكشْف النقاب للبوليس عن حقيقة الأمر، فنهض ضميري الفني مُعارِضًا، مؤكِّدًا أن واجب الفنان هو السكوت ... واحتدم الجدل بين الضميرَين، في الحوار الآتي:

الضمير الإنساني: أتساءل كيف تسكُتَ وقد شاهدتَ بعينَيك رجلًا لا ذنب له يسقط مُضرَّجًا بدمائه تحت مُدية مجرمٍ وحشي؟!

الضمير الفني: حقًّا ... لقد كان منظرًا فنيًّا رائعًا!

الضمير الإنساني: إني لم أَنَمْ منذ تلك الليلة ... ولا يمكن أن أنام حتى يُقبَض على الجاني الحقيقي ... وإني أتوسَّل إليك أن تُريحني وتساعدني على تحقيق العدالة ... هلمَّ بنا نُخبِر البوليس.

الضمير الفني: أنا لم أرَ شيئًا أبلِّغ عنه.

الضمير الإنساني: إنك رأيتَ الجريمة من أوَّلها لآخِرها.

الضمير الفني: إني رأيتُها كفنانٍ لا كشاهد إثبات.

الضمير الإنساني: وما الفرق؟

الضمير الفني: ألا ترى الفرق؟!

الضمير الإنساني: إنك رأيتَ، على الأقل، المجرم الحقيقي، وتستطيع أن تبوح باسمه.

الضمير الفني: لن أبوح بشيء.

الضمير الإنساني: الخُلُق القويم يدعوك أن تبوح؛ لتُنقِذ متهمًا بريئًا، وتقتصَّ لذلك الحارس المسكين الذي هُدِر دمه في غير ذنبٍ إلا قيامه بواجبه الشريف.

الضمير الفني: إنك تعلم أن الخُلُق القويم هذا شيء من شأنك أنت ... أما أنا فلا أعرف غير العمل الفني القويم ... وإني لم أدخل بين هؤلاء اللصوص باعتباري مخبرًا سريًّا يُبلِّغ عنهم؛ ولكني دخلتُ بينهم بصفتي فنانًا يدرس أحوالهم، وقد وَثِقوا بي وأطلعوني — لهذه الصفة — على ما لا يجسرون أن يُطلِعوا غريبًا عليه؛ فهل من حقِّي أن أخون هذه الثقة؟!

الضمير الإنساني: حقًّا ... يا لها من ثقة غالية ... تلك التي تنالها من أيدي القتلة والمجرمين!

الضمير الفني: الثقة هي الثقة، سواء نلتها من شريف أو أَثِم ... إن قيمة الجواهر لا تتغيَّر بتغيُّر الأيدي التي تمنحها.

الضمير الإنساني: ما أبرعك في صياغة الكلمات! ولكنَّ هذا لا يمنع من أنك الآن في نظر المجتمع والقانون مرتكبٌ لذنبٍ لا يُغتفَر، إن لم تُبادِر فتصحِّح موقفك.

الضمير الفني: موقفي الآن صحيح ولا غبار عليه.

الضمير الإنساني: هذا رأيك أنت وحدك ... ولكن هَبْ أنه قُبِض عليك مع شركائك مُتلبِّسين في مكان مع الجريمة ... أكانت تشفع لك كلُّ هذه الفلسفة؟!

الضمير الفني: هذا سؤال تُوجِّهه إلى القضاة لو أنه قُبِض علينا ... ولكن الذي حدث حتى الآن هو أنه لم يُقبَض على أحدٍ منا ... ومع ذلك، فالقضاء يعرف ظروف اشتراكي في هذا الأمر، والبواعث التي دعت إليه، وهي كلُّها شريفة.

الضمير الإنساني: أرجو منك ألَّا تتكلَّم عن الشرف! لقد ظهر لي أننا غير متفقين على معنى هذه الكلمة.

الضمير الفني: تريد أن تقول إني لستُ شريفًا؟!

الضمير الإنساني: من الصعب أن أَعُدَّك كذلك وأنت تنام ملء جفنَيك، مرتاحًا مطمئنًا، لا يُزعِجك صراخ ذلك الدم البريء الذي يُنادي بإحقاق الحق وإقرار العدل ... إنك لا تريد أن تخون السفَّاكين الذين استأمنوك ... وتريد أن تخون المجتمع الذي وضع في قلمك أمانة الدفاع عنه ... أنت أيُّها الكاتب الحر، فِيمَ عملُك ورسالتُك إذن إن لم تَكُن في النهوض ذائدًا عن حرية الأفراد ودمائهم، مناصِرًا للعدالة، مُعينًا للحق والقانون؟!

الضمير الفني: يا لها من بلاغة! ... أنت أيضًا تعرف كيف تؤثر في النفوس بمثل هذه الكلمات؟!

الضمير الإنساني: أتستطيع أن تُكذِّب حرفًا واحدًا مما أقول لك؟!

الضمير الفني: أنا لا أُكذِّب ولا أُثبت ... أنا أصوِّر وأُعبِّر ... الشرف عندي هو في صدق التصوير والتعبير.

الضمير الإنساني: أهذا كلُّ واجبك إزاء البشرية؟

الضمير الفني: هذا ليس بالشيء القليل ... ولأُفسِّر لك الأمر باللغة التي تفهمها: إن الكاتب الفنان يؤدي رسالته إلى البشر، ويُعاوِن في إصلاح المجتمع بمجرَّد كشفه خبايا بيئاته المختلفة بريشة صادقة، ودراسة أسرار النفس الإنسانية والغرائز البشرية، وإبرازها للعيون والعقول.

إن عملي يُماثِل عمل العالم الكيميائي وهو يدرس الأمراض تحت مكروسكوبه ... لماذا لا تذهب إلى هذا العالم وتقول له: «اقتل هذه الجراثيم في الحال؛ فهي تستحق الإبادة»؟! ... إنه لا شك يُجِيبك باسمًا: «ليس مهمتي أن أُبِيدها الآن هكذا ... إنما ينبغي لي أن أعيش بينها؛ أراقبها وأُسجِّل ظواهرها؛ فإذا عرفنا خواصَّها، وخيرها وشرها، أمكن العلماء فيما بعد أن يستخرجوا لها العلاج، ومنها الترياق.»

أنا أيضًا أقول لك الآن: دعني قليلًا بين جراثيم المجتمع من أهل الشر والعهر والفُجر، أضعهم تحت «مكروسكوبي»، ثم أعيش بينهم أرقبهم، وأُدوِّن ما يبدو لي منهم.

الضمير الإنساني: لكنهم يعيثون فسادًا كما تعلم!

الضمير الفني: المُكلَّفون بمطاردة الجراثيم هم رجال الصحة ورجال البوليس ... أما رجال العلم والبحث، فهم يُحافِظون على نماذج جراثيمهم في المعامل.

الضمير الإنساني: آه ... إني لأعجب كيف أن شريفًا مترفعًا مثلك يستطيع أن يرى القبح والفساد، وأن يعيش راضيًا مطمئنًا بين هذه المناظر والظواهر؟!

الضمير الفني: هنا بالضبط نبل مهمَّتنا ... ألا ترى ذلك العالِم الذي يحقن جسمه بلقاح الجراثيم، ويُعرِّض حياته كلها للخطر من أجل الرغبة في البحث والاستكشاف خدمةً لعلمه والإنسانية فيما بعد؟! ... نحن أيضًا — معشر الكُتَّاب والفنَّانين — نصنع أحيانًا مثل ذلك في سبيل الفن والمجتمع والبشرية.

الضمير الإنساني: قد يكون هذا حقًّا ... ولكن برغم كل ذلك، أرى واجبك كمواطن شريف أن تُبلِّغ البوليس.

الضمير الفني: واجبي عدم التبليغ.

الضمير الإنساني: بل الواجب أن تُبلِّغ؛ كي لا تعطي الناس القدوة السيئة.

الضمير الفني: ليس للناس أن يقتدوا بالفنان في كل تصرُّفاته ... كلا، لن أُبلِّغ.

الضمير الإنساني: بلِّغ.

الضمير الفني: لن أُبلِّغ.

واضطرب رأسي تحت ضربات تلك المعركة العنيفة، فارتميتُ على فراشي أطلب النوم تخلُّصًا من عذاب نفسي، وما يدور فيها من حرب ضروس.

ولكني لم أُغمِض جفنًا طول ليلي ... ولم يَفتُر الدويُّ في أذني لحظةً بهاتَين الكلمتَين الملعونتَين: «بلِّغ ... لا تُبلِّغ ... بلِّغ ... لا تُبلِّغ ...»

حماري ومنظري

قال لي حماري وهو يتأمَّل جنديًّا شابًّا، مرَّ بنا في طريقه — ولا ريب — إلى ساحة القتال، ولفت أنظارنا ببهاء طلعته: انظر إلى هذا الجندي الفاتن! ... ماذا عليه بربك لو أعطاك رأسه تفعل به أنت هنا الأفاعيل، وأخذ رأسك القبيح هذا ليموت به في الميدان الغربي؟!

فلم أرد عليه ... فتلك مسألة طالما فكَّرتُ فيها من قبل بيني وبين نفسي ... نعم، طالما ندبتُ سوء حظي ونصيبي، وبكيتُ واشتكيتُ؛ لأن السماء خلقتني هكذا شكلًا وموضوعًا ... ولكن فكَّرت وتأمَّلتُ، وقلتُ عن نفسي ما قال الفيلسوف «باسكال» عن «كليوباترا»: «لو أن الله جعل لي أنفًا أصغر من أنفي هذا لتغيَّر وجه حياتي كله أجمل تغيير ... ولكن الله ضنَّ على مثلي بهذه المنحة الصغيرة، وهي لا تُكلِّفه كثيرًا ولا قليلًا.»

وكنتُ كلَّما ذهبتُ إلى حلَّاق وأبصرتُ إلى جانبي رجلًا بديع القسمات، أُخاطِب السماء قائلًا: لكأنَّك، يا ربي، قبل أن تخلق هؤلاء المحظوظين، قد وضعتَ بين أيديهم صناديق مملوءة بمختلف أصناف الأنوف والشفاه والآذان والعيون؛ ليختاروا من بينها ما لذَّ لهم وطاب ... أما أنا وأمثالي، فيُنبَذ إليهم ما بَقِي بعد ذلك في قعر الصناديق من «كُناسة» أيدي أصحاب الخطرة والنصيب ... قلتُ ذلك كثيرًا وردَّدتُه طويلًا، وإذا أنا أسمع ذات ليلةٍ صوت ملاك من الملائكة يهبط عليَّ وأنا بمفردي في حجرتي صائحًا بي: فضحتَنا! ... السماء ضجَّت من تشنيعك وتشهيرك!

– عفوًا يا سيدنا الملاك!

– اسمع يا أستاذ ... لقد جئتُ إليك لأُحقِّق كل طلباتك؛ حتى لا تتَّهمنا بعد ذلك بالتحيُّز أو المحسوبية أو غير ذلك من الصفات غير اللائقة ... ما رأيُك لو خلعنا عنك هذا الشكل الذي لا يُعجِبك، وأعطيناك غيره كما تشاء وتحبُّ؟!

– وكيف يحدث ذلك؟

– تموت ثم تُولَد مرةً أخرى في ثوب جديد ... وإن لك علينا لعهدًا وميثاقًا أن نفتح بين يديك كلَّ تلك الصناديق التي تتحدَّث عنها؛ لتختار أنت أولًا ما يحلو لك قبل كافة مواليد العالم.

– ومن يضمن لي إذا مِتُّ أن أُولَد من جديد؟

– عجبًا ... أَوَتشكُّ في وعد أهل السماء؟!

– كلا ... ولكن هل أنت تفعل هذا بإذن؟

– بالطبع ... وهل يحدث شيء بغير إذن المولى العظيم؟!

– إن الله حقًّا لغفور رحيم ... وا فرحتاه! ... إنه سيعطيني كل ما أريد.

– كل ما يريد وكل ما تتخيَّر لنفسك.

– هذا شيء جميل ... اجلس إذن، يا سيدنا الملاك، ولنتحدَّث قليلًا ... ولا بأس من أن تشير عليَّ بما ينبغي أن أختار ... فأنا أخشى أن تبهر عيني عند فتح الصناديق؛ فلا أستطيع أن أُميِّز الجيد من الرديء ... إني أذكر سوء اختياري دائمًا لألوان «الكرافاتات» و«الجوارب»، وحيرتي كلما فُتِح لي صندوق منها لانتخاب أحسنها ... وإني لأغرق في تردُّدي مرة ثانية إلى أن ينتهي بي الأمر إلى تخيُّر أقبحها وأرذلها دون أن أدري أو أنتبه.

– أَوَتريد مرةً أخرى أن تُحمِّلنا مسئولية اختيار أنفك وفمك؟! ... لا، لا يا سيدي الأستاذ ... أَوَنَسِيتَ أنَّك منذ قليلٍ كنتَ حضرتك تطعن في ذوقنا، وتتَّهمنا في نوايانا؟!

– حاشا لله ... أنا لم أطعن ولم أتَّهم ... إنما كنتُ أتظلَّم وأستعطف ... ولقد تفضَّلتُم فاستمعتُم إلى ظُلامتي، فأكمِل فضلك معي وامكث نتبادل أطراف الحديث.

– مكثتُ ... تكلَّم ... إني مُصغٍ إليك أيُّها الأستاذ.

– أيُّها الملاك ... ما رأيك في أن أطلب أن يكون لي شكل «كلارك جيبل»؟

– بديع جدًّا.

– أليس لك اعتراض؟! ... فلنتفق من الآن ... والشرط نور.

– موافق جدًّا؛ بل أكثر من ذلك ... أحبُّ أن ألفت نظرك إلى أنَّ مِن حقك — بناءً على اتفاقنا هذا — أن تطلب ما شئتَ، لا من حيث الشكل وحده؛ بل الأخلاق أيضًا، ثم الثروة كذلك.

– عجبًا! ... الأخلاق والثروة؟!

– ولِمَ لا؟

– إذن فأنا أطلب أن تكون لي ثروة «روكفلر».

– معقول جدًّا.

– أليس كذلك؟!

– نعم ... وأخلاق مَن؟

– آه ... حقًّا ... دعني أفكِّر قليلًا ... أظنُّ أنه لا يوجد خير من أخلاق «غاندي» ... نعم، إني أطلب أن تكون لي أيضًا أخلاق غاندي.

– عظيم جدًّا ... شكل «كلارك جيبل»، وأخلاق «غاندي» وثروة «روكفلر».

– ألا تظنُّ أن هذا كثير؟ ... إني أُبالِغ بلا شك ... إنها قلة ذوق مني ... إني أستغلُّ عطف السماء أكثر من اللازم!

– كلا يا أستاذ ... مطلقًا ... لا شيء بكثير على قدرة الله ... إن الله إذا شاء أعطى بغير حساب.

– اللهم شكرًا ... أنا الذي طالما تمنَّى أن يُلغَى الحساب من الوجود ساعة تمتدُّ يد الله نحوي بالعطاء ... ها هي ذي الساعة أقبلت!

– ألك طلبات أخرى؟

– لا يا سيدي الملاك ... أَوَبَقِيَ شيءٌ يُطلَب: شكل «كلارك جيبل»، وثروة «روكفلر»، وأخلاق «غاندي» ... أأُرِيد أن أنهب الكون؟! ... يا للمعجزة! ... إني سأغدو أعجوبةً — ولا شك — فوق هذه الأرض ... إني سأصنع العجب العُجاب.

– سوف نرى.

– وهل هناك شك في أني سأملك من الوسائل ما أصنع به الأعاجيب؟

– أيُّ نوع من الأعاجيب؟! ... إنَّا لم نتفق بعدُ على اسمك وعملك.

– اسمي وعملي؟!

– بالطبع ... يجب أن يكون لك اسم وعمل في حياتك الجديدة.

– حقًّا ... هذا ما نسيتُ أن أُفكِّر فيه.

– ثم يجب أن تكون لك جنسية! ... أَمِثلَ «جيبل» و«روكفلر» أمريكيًّا؟ أم مِثلَ «غاندي» هنديًّا هندوسيًّا؟ أم ...

– هنديًّا هندوسيًّا؟! ... ما هذا الكلام أيُّها الملاك؟! ... ومتى أتعلَّم هذه اللغة؟! ... لا، لا يا سيدي ... بسِّط كل هذه الإجراءات، واتركني كما أنا مصريًّا، وليَكُن اسمي «توفيق الحكيم»، كما أكون الآن.

– لا بأس في ذلك، ولا مانع لدينا مطلقًا ... وعملك؟ ... هل تريد أيضًا أن تبقى كاتبًا كما أنت؟

– طبعًا، طبعًا ... وهل يمكن أن يكون «توفيق الحكيم» شيئًا آخر في الحياة غير ذلك؟!

– آه يا سيدي الأستاذ ... سوف نرى ... سوف نرى.

– نرى ماذا؟ ... إنك تخيفني بهذه اللهجة المُبطَّنة بالشك والريبة.

– لا تَخَف ... إني ما جئتُ لأُخيفك ... إنما أنا هنا الآن لأُنيلك ما تشتهي ... ولكنَّك أردتَ أن نتجاذب أطراف الحديث، وقد جرَّنا الكلام إلى ما يعنيني وإلى ما لا يعنيني ... وإني لأرى الفضول يدفعني إلى أن أُوجِّه نظرك إلى أمر ... هل تسمح؟

– العفو يا سيدي الملاك ... تفضَّل ... وجِّه نظري إلى حيث شئتَ.

– هل تتصوَّر ما سوف يحدث غدًا يا «توفيق الحكيم»، وقد أصبح لك شكل «كلارك جيبل»، وتصوُّف «غاندي»، وثروة «روكفلر»؟!

– ماذا سيحدث؟

– تخيَّل ... تخيَّل يا سيدي الروائي.

– تخيَّل أنت يا سيدي الملاك.

– إذا سمحتَ لي، فإني أقول لك إن الذي سيحدث هو أن شكلك الجديد الجميل، سوف يجعل كل الجميلات يرتمين على أقدامك.

– الله يسمع منك بجاه النبي!

– ولكنك ... حيث إن لك تصوُّف «غاندي»، فإنك لن تلتفت إليهن ... وستقنع من الحياة كلها بتلك «العنزة»، وتحلب من لبنها وتشرب.

– وهل هذا معقول؟!

– وعند ذاك تنصرف عنك الجميلات يائسات ساخطات، متسائلات عن كُنه ذلك المخلوق الغافل عن جماله، القانع بعنزته وصومعته وخياله.

– معهنَّ حق ... هذا مخلوق يستحق الشنق!

– هذا هو الجمال مع التصوُّف.

– لا ... يا سيدي، احذف التصوف من فضلك!

– إذن فليَكُن الشكل «كلارك جيبل»، مع أخلاق مَن؟

– أخلاقي أنا تكفي.

– أخلاقك كما هي الآن؟! ... عظيم ... إذن فلتكن أنت بالشكل الجميل وثروة «روكفلر» ... أتدري ماذا سيحدث؟ ... سيُحيط بك جميلات الأرض حبًّا في صورتك وطمعًا في ثروتك.

– أهلًا وسهلًا! … وأنا لا أتمنَّى على الله ولا عليك أكثر من ذلك.

– ولكن … بما أنك تريد أن تبقى كاتبًا روائيًّا … فإني أظن من الصعب عليك أن تجد وقتًا تتخلَّص فيه من أذرع النساء لتجلس أمام الحبر والورق … وإذا وجدتَ الوقت فلن تجد الدافع الذي يحفزك إلى العمل … أين في تاريخ الأدب والفن ذلك المليونير الوارث الذي يحني ظهره ليكتب أو يخلق؟! … إن لذَّة الفنان هي في أن يُنتِج، ويقوم نتاجه بعد ذلك بالذهب أو بالمجد … هو الذي يُوجِد المال بفنه … أما إذا وُجِد المال قبل ذلك عن غير طريق فنِّه، فإن نصف لذة الخَلْق الفني تضيع … ونصف الحافز على الإنتاج يذهب … المليونير الذي أصبح فنانًا عظيمًا غير موجود … ولكن الموجود هو الفنان الذي قد يستطيع بفنِّه أن يكون مليونيرًا.

– آه يا سيدي الملاك … إذن لا ضرورة لثروة «روكفلر»؟!

– فكِّر في الأمر يا سيدي الأستاذ … ربما كنت غير مصيب … فشئون الفن تعرفها أنت أكثر مني … إني — كما تعلم — لستُ فنانًا … أنا ملاك فقط.

– العفو، العفو … إن رأيك في الحقيقة فيه شيء من الصواب … إننا لا نُنتِج في الفن من أجل الثروة؛ أو على الأقل ليس من أجلها وحدها … ومع ذلك فما ألذ طعم المال الذي يأتي ثمرة الفن! … حقًّا، إني لأحس هذا الشعور دائمًا … ما أتفه المال الذي يأتيني من غير طريق فني!

– أرأيتَ اللذَّة التي تحرم نفسك إياها بطلبك ثروة تأتيك من السماء؟!

– نعم، نعم … احذف ثروة «روكفلر».

– إذن فليَكُن لك فقط ما طلبت: شكل «كلارك جيبل».

– وهذا يكفيني، ولا أطلب غيره.

– عظيم … ستبقى أنت كما أنت، ولكن في صورة جميلة، وطبيعيٌّ أنك ستكون مِحبابًا من الحِسَان … هذا لا مفرَّ لك منه، ولا حيلة لنا فيه.

– وما الضرر يا سيدي، أعزَّك الله؟!

– لا ضرر … ولكن …

– ولكن ماذا؟ … صارحني بربك وارحمني!

– فنُّك … أيبقى هو فنَّك؟ أم يصبح فن رجل آخر … إنك تعلم أكثر مني أن الفن يتغيَّر بتغيُّر طبيعة القلب الذي يخرج منه … إنه كالماء الذي ينبثق من الينابيع … فهو حار إذا نبع من بقعة الزلازل والبراكين، بارد إذا صعد من أرض الأمن والاطمئنان.

– لم أفهم بعد.

– لعل الأصح أنك لا تريد أن تفهم ... لكن لا بأس من أن أُوضِّح لك، ولن آتي بكلام من عندي ... حسبي أن أسوق إليك كلمة أنت نفسك قائلها وواضعها على صدر كتاب من كتبك: «إن صاحب الحياة السعيدة لا يكتبها ... بل يحياها».

– تريد أن تقول إنه إذا كان لي شكل «كلارك جيبل» وحياته السعيدة، فإني سأحياها ولن أكتبها؟!

– لستُ أنا الذي قالها، بل أنت الذي قلتَها ونشرتَها.

– ومَن أدراك أني لم أخطئ ولم أغلط؟! ... أنا رجل كثير السهو والغلط، لماذا لا أُجرِّب؟! دعني أُجرِّب يا سيدي العزيز ... ماذا يضيرنا لو جرَّبنا؟! ... إن التجربة وحدها هي التي تلهمني وتهديني ... ولقد عزمتُ على أن أُجرِّب بنفسي كل شيء، وأن أهبط وأرتفع، وأنهض وأقع في أجواء الحياة والمجتمع، فامنحني شكل «جيبل»، ولا تحرمني هذا الطلب الوحيد، عافاك الله وأبقاك!

– لا تخدع نفسك ... أو اخدعها وأنا غير مسئول عن النتيجة ... خذها مني كلمة صادقة: إذا تغيَّر شكلك تغيَّر تفكيرك وتغيَّرت نظرتك إلى المجتمع والحياة، وأصبحتَ شخصًا لا علاقة له بتوفيق الحكيم؛ لا من بعيد ولا من قريب.

– أحسن ... وأنا لا أريد أن تكون لي بحضرته أيُّ علاقة.

– هذا شيء آخَر ... ولكننا اتفقنا من مبدأ الأمر على أن تحتفظ باسمك وشخصك وعملك.

– وبعد؟

– وبعد، فإن الله لم يترك شيئًا للمصادفة ... إنه خلقك هكذا لتُنتِج فنًّا هكذا ... فإذا تغير أنفك تغيَّر فنُّك!

– وبالاختصار ... أيُّها الملاك.

– بالاختصار أيُّها الأستاذ ... ليلتك سعيدة، وأحسِن ظنَّك بحكمة ربك الذي لم يخلق شعرةً من شعر رءوسكم عبثًا.

وهكذا انتهى الحوار بيني وبين الملاك المفضال، وأنا كما أنا لم أَنَل شيئًا ولم أربح جديدًا ... وتحرَّك الملاك ليرتفع من حجرتي عائدًا إلى السماء ... فصِحتُ به مستوقفًا: لحظة واحدة من فضلك ... يظهر أن الحائل بيني وبين كل خير هو هذا الفن المزعوم ... أنا يا سيدي متنازل عنه.

– تنزل عنه من أجل شكل جميل؟!

– المسألة في نظري تستحق المقايضة.

– أنت وما تريد ... ولكنها أنانية منك أن تُضحِّي بعملك الذي تُؤدي به خدمة عامة في سبيل صفة شخصية تنال بها متعة خاصة.

– أنانية، أنانية ... أنا راضٍ بهذا الوصف ... لكن غيِّروني ... أنا طالب التغيير ... أنا حرٌّ في نفسي، ولا أحد شريكي.

– لك شريك ... هو وطنك ... فإذا وافق أهل بلادك على أن يُؤخَذ من بينهم «فنان» ليُستبدَل به «دون جوان»، فلا مانع لدينا من إجراء عملية الاستبدال.

وهكذا عقَّد لي الإجراءات بدل تبسيطها ... وارتفع سريعًا قبل أن ينتظر مني جوابًا ... وتركني وحدي كما كنتُ أمام ورقي وحبري وحماري ... لم أتقدَّم أو أتأخر.

حماري وصورتي

دخل عليَّ حماري يقول متعجبًا: بلغني اليوم أن صورة لك «زيتية» أو «باستيل»، لستُ أدري على التحقيق، قد بِيعت بمائة جنيه! ... فمَن هو هذا المُثري المُسرِف المُتهوِّر الذي أقدَم على دفع هذا الثمن فيك؟!

فقلتُ له هادئًا: هذا المُثرَى المسرف المتهور ... هذا ما أُزِيح لك عنه الستار بعد قليل ... ولأبدأ القصة من بدايتها فأقول لك:

إني كنتُ جالسًا ذات يوم حيث اعتدتُ الجلوس، وإذا مُصوِّر أُقدِّر مواهبه هو «صلاح طاهر»، جاء يقترح عليَّ رسم صورة لي كما صنع للعقاد، وأراني نسخة فوتوغرافية للوحة العقاد، فقلت له: «هذا حقًّا بديع، ولكنَّ العقَّاد له من حُسن سمته ما يستحقُّ التصوير، ومن عمق حسِّه ما يستوجب التعبير. أما أنا فماذا يغريك بتصويري؟!»

وقصصتُ عليه حكاية نُقِلَت إليَّ عن مثَّال خطر له أن ينحت لي تمثالًا، ولم يكن قد رآني، فسأل عن مكاني، فوصفوه له، فجاء ومرَّ أمامي دون أن أشعر، ثم عاد إلى أصحابه يقول لهم في خيبة أمل إنه بعد أن شاهد شكلي عدل عن صنع التمثال ... ولكن هذا المصور لم يَحْذُ حذوَ زميله النحَّات، وأصرَّ على عزمه ... ونظر مليًّا إلى جلستي بعصاي وقال: «لا تتحرك ... هكذا أضعك على لوحتي كما أنت الآن»، وبدأ عمله بالفعل بعد أن هوَّن عليَّ كل مشقة، وأعفاني من كل كُلفة، وتركني أسبح في ملكوتي — كما يقول — وأنسى نفسي وأنساه.

وفرغ من الصورة ... وكان الشرط الذي بيننا قبل أن يبدأها هو أن ينصرف بها بعد إتمامها ... وقد عَجِب لذلك أول الأمر ... ولكني سألته: «ألم يتفق لك أن صوَّرت حمارًا — ولا مؤاخذة — أو حصانًا أو غرابًا؟»

فقال: اتفق لي كثيرًا.

فقلت: هل كنت تعطي هذه الصور لأصحابها المذكورين؟

فقال: بالطبع لا.

فقلت: أنا أيضًا، افعل معي ذلك.

فوافقني كل الموافقة ... ولَمَّا عرف فيما بعد أني أعيش مُجرَّدًا من كل طُرَفٍ أو تُحَف أو ذكريات ... حتى كتبي التي أنشرها لا أحتفظ بنسخة منها لنفسي؛ عذرني ... ثم قال: «إني في الحقيقة كنتُ عازمًا على عرض هذه الصورة للبيع في معرضي الذي سأقيمه قريبًا.»

– للبيع؟ ... ومن هو هذا المجنون الذي يشتريها؟!

– طبعًا لن تكون امرأة ... هذا مفهوم!

– إلَّا إذا اشترتها لتبصق عليها صباح مساء.

وانصرف المُصوِّر بالصورة ... ونسيتُ أمره وأمرها، وانتهى خبرها عند هذا الحد ... وإذا الصاوي يُخبِرني ذات يوم أنه رأى اللوحة معروضةً في ستوديو الفوتوغرافي «خورشيد»، وأنه أُعجب بها إعجابًا شديدًا ... والصاوي صاحب ذوق فني سليم بالفطرة والسليقة، وإنه ليبلغ أحيانًا في حبه لاقتناء كل جميل من التحف والصور مبلغ التهوُّر ... ففي حجرته صورة لـ «جوزفين بيكر»، ليست سوى مجرد نسخة عن أصل معروف دفع فيها عشرين جنيهًا ... ولقد علمتُ أنه كان في باريس يشتري ما يفتنه من التحف بالتقسيط؛ إذ كان طالب علم يعوزه المال، ولم يكن بعدُ صاحب أرض تُدِرُّ عليه العسل والعنب والفول السوداني ... فلما أثنى على الصورة صدَّقتُه ... ثم عرجت بالحديث إلى مجرًى آخر ... فقد احتدم بيننا منذ يومَين خلاف حول أمر غاظني منه كل الغيظ، وأطلق لساني بتأنيبه أعنف التأنيب ... ذلك أنه كان قد نوى شراء وقَّادة أو «ولاعة» سجاير للجيب، رآها في «فترينة» جواهري معروف ثمنها ٢٨ جنيهًا، فاتهمتُه بالسفه الذي يُوجِب الحَجر، فلم يَرْعَوِ ... وإذا به ذلك اليوم يصارحني بأنه لم يَقْوَ على إغرائها، فاشتراها ... وأخرجها من جيبه مغتبطًا وأوقد بنارها سيجاره وأنا أنظر إليه على «نار» ... فما إن رآني على هذه الحال حتى ابتسم وقال: تُسمِّي هذا سفهًا وإسرافًا وجنونًا ... فما بالك لو عرفتَ ما هو أدهى؟!

– ماذا أيضًا؟ ... لم يَبْقَ إلَّا أنك اشتريتَ لامرأة جوارب بمائة جنيه!

– دعها مفاجأة ... لن أقول لك الآن.

وتحدَّثنا في أشياء أخرى ... وتشعَّب بنا الحديث ... وقبل انصرافنا قال: «إني قد أعددتُ لك بعد غد وليمة عشاء.»

– وما الموجِب؟

– أليس من حقي أن أحتفل بك؟!

– إياك أن يكون غرضك أن تقترض مني نقودًا؟! فقهقه عاليًا، وافترقنا ... ومضى اليومان، وذهبت إلى وليمة الصاوي، فماذا وجدتُ؟ ... وجدتُ مائدة منصوبة بألوان الطعام والشراب ... ولكن لم يكن هذا هو المقصود ... فقد كان بيت القصيد تلك المفاجأة التي سبق إليها التلميح: تلك صورتي مُعلَّقة في صدر المكان، محاطة بإطار بديع من خشب الأرو النفيس، وإلى جانبها مُصوِّرها صلاح طاهر يقول لي: «هذا هو المشتري: الأستاذ الصاوي، دفع فيها مائة جنيه، فضلًا عن الإطار الذي كلَّفه عشرة جنيهات ... ومنحني فوق ذلك حق عرضها في المعرض، لمُجرَّد العرض.»

فغمغمتُ كالحالم: «المشتري؟!»

فقال الصاوي باسمًا: «المجنون!»

في الحق أني فوجئت، وقد أسفر الموقف عن جد لا هزل فيه ... وقد تأثرتُ فعلًا كما تأثر معي صديقنا الزيات صاحب مجلة الرسالة — وكان حاضرًا — وتركنا المزاح، وواجهنا الأمر بعين أخرى.

واستأنف المُصوِّر الكلام قائلًا: إن الصاوي — وهو يدفع الثمن نقدًا وعدًّا دون أن يُساوِم أو يُماري — كان يخشى شيئًا واحدًا، هو عدم ارتياحي أنا لاحتفاظه هو بالصورة. ومنشأ هذا القلق هو علمه بأن صورتي الزيتية التي صنعها لي «صبري» منذ عشرة أعوام، قد اشترتها الحكومة لوضعها في متحف الفن الحديث؛ فهو إذن كان يحسبني أُفضِّل لرسمي الجديد ذلك المصير المجيد ... وهو موافق على هذا التفضيل، ومستعد أن ينزل عن ملكيته للوحة إذا كانت تلك إرادتي ... فماذا أقول في كل ذلك؟ ... لقد كانوا يتحدَّثون بهذا حولي وأنا شارد في عالم آخَر ... لقد خُيِّل إليَّ أني لستُ في مصر؛ بل في أوروبا ... فهناك نجد أمثال هذا التقدير من الزميل للزميل ... فهناك نسمع حقًّا أن صورة «ويلز» تُزيِّن حجرة «برنارد شو»، وأن «موروا»، يضع كتابًا عن زميله «فاليري» ليُيسِّر على قرَّائه فَهْم ما دقَّ من آرائه ... أما في مصر، فما نعلم إلا أن فلانًا طعن في زميله فلان ... وأن هذا الكاتب شتم ذاك ... وقد اعتنقت صحافتنا هذا الأسلوب، فجعلت تغري شخصيات الفكر والسياسة بعضهم ببعض للمباريات العلنية في أحدث ألوان السباب والإقذاع والإسفاف، حاسبةً بذلك أنها تسرُّ قرَّاءها، كما كان العوام يسرُّهم قديمًا تنافُر الديوك وتناطُح الخراف ... حتى فسدت أذواق قرَّائنا، وانحطَّت مشاعرنا، وسَفَلَت

نفوسنا، وأصبحنا — نحن أهل الشرق — ننظر إلى العاطفة الرفيعة، إذا ظهرت، كأنَّها أعجوبة الأعاجيب، وإلى العمل النبيل، إذا فَلَتَ، كأنَّه من الخوارق التي نستكثرها على طبيعتنا ... هذا هو المرمى الذي حفزني على ذكر هذا الموضوع؛ فالناحية الخاصة منه ليست سوى وسيلة ومغزًى للجانب العام ... إنه درس ومثال أرجو أن يُعِيد إلى قلوبنا الثقة بأن في بلادنا أحيانًا روحًا لا يقل سموًّا عما في غيرنا من البلاد العظمى.

حماري والنفاق

قال لي حماري، وقد رآني أتهيَّأ للسفر ذلك الصيف إلى رأس البر: «أتذهب وحدك؟» فخجلتُ منه ودعوتُه؛ لأن الوفاء يأبى أن أتركه يَصلَى حر القاهرة وأمضي أنا بدونه إلى المصايف ... ولقد نزل مثلي ضيفًا مُعزَّزًا مُكرَّمًا على «عشة» أحد الأصدقاء، وأُفرِد له مكان بجواري ... وأصبح ينعم بهواء البحر مثلنا ... ويذهب معنا كل صباح إلى «خيمتنا» التي نُصِبت على الشاطئ، وينظر كما ننظر إلى أفواج المصيفين والمصيفات تغدو وتروح بألوان ثيابها الزاهية المختلفة، كأنها معروضات الفترينات، قد وُضِعت فيها مُحرِّكات تُسيِّرها أمام أعيننا فوق الرمال ... وكان يحلو لي أن أغرق صامتًا في مقعد بحري طويل مريح، وكنتُ قد أوصيتُ حماري بالسكوت؛ فنحن هنا للراحة لا للكلام ... وقد أذعن لرجائي فلم ينبس بحرف ... إلى أن جاء ذات يوم إلى «البلاج» رجل من معارفنا، له جسم قد ترهَّل، وكرش قد برز كأنه «فنطاس» غاز، وهو يرتدي «الشورت» مع قميص قصير الأكمام، فقلت له: «يا لك من رشيق! ... يا لها من رشاقة!»

وهنا لم يتمالك الحمار، وهمس قائلًا لي: أحقًّا تراه كذلك؟

فقلتُ بصوتٍ مرتفع سمعه الرجل مغتبطًا: طبعًا أراه كذلك ... ولماذا لا أراه كذلك؟!

فهمس الحمار لي وهو يتأمَّل قوام الصديق وقدَّه من رأسه إلى قدمه: كيف لا أرى أنا ما تراه أنت؟!

فقلت له مُغيظًا: لأنك أنت حمار!

فأجابني هامسًا: ولماذا لا تقول لأنك أنت منافق؟!

وكان الصديق قد ابتعد ولحق بمضيفي، وقد اطمأنَّ إلى حسن منظره، وسارا معًا على الشاطئ، بعد أن يئسا من ذهابي معهما ... فأنا لا أحب المشي ... وانفردت بحماري أَصِيح فيه: أنا منافق؟!

– مهلًا، مهلًا ... أنا لم أقصد إهانتك.

– افهم أيُّها الحمار أن هذا ليس نفاقًا، ولكنها مجاملة.

– مفهوم ... إنها مجاملة ... والمجاملة هي النفاق الصغير ... هي كالجحش بالنسبة إلى الحمار ... ومع ذلك فأنا لا أستهجن النفاق على الإطلاق ... إني تأمَّلتُ نفسي ذات يوم، وتأملتُكَ وقلت: ما الفرق بيننا معشر الحمير وبينكم معشر الآدميين؟! ... نحن نأكل الفول، وأنتم تأكلون الفول ... وإذا كنا نحن نحبه ممزوجًا بالتبن أو النخالة، وأنتم تحبونه بالزيت أو الزبدة ... فتلك مسألة مزاج ... ولا يجب أن نُسمِّيه فرقًا جوهريًّا ... إنما الفرق الأساسي حقًّا بيننا وبينكم هو أنكم تعرفون «النفاق»، ونحن لا نعرفه ... وقد علَّلتُ نفسي ومنَّيتُها بحلم جميل؛ هو أن تتاح لي الفرصة أن أرجوك يومًا وأتوسَّل إليك أن تُعلِّمني النفاق.

– عجبًا! ... مَن علَّمك هذا الأسلوب الهازئ؟!

– إني لست أهزأ ... إني أقول الجد ... تلك عقيدتي: لو أمكنني تعلُّم النفاق وإدخاله في فصيلة الحمير، لانقلبنا مخلوقات مثلكم ... إني مؤمن كل الإيمان بهذا المبدأ ... وإني أعمل سرًّا على تنفيذه منذ زمن ... فلا تقف في وجه مطامعي وآمالي ... خذ مني كل شيء، وأعطني النفاق!

– ماذا جرى لك؟ ... هل جُننت؟ ... هل أثَّر في رأسك هواء البحر النقي وطعام مضيفنا الشهي؟!

– رأسي بخير ... ولقد سألتُك شيئًا سوف يُحدِث انقلابًا في تاريخ بني جنسي، ولكنك تبخل به علينا وتَضِنُّ، فلن أُلِحَّ أو أثقل عليك بعد الآن في الطلب!

– أمرك غريب ... أَبخَلُ عليك بماذا؟ ... أهو شيء عزيز نفيس أَستكثِره على مثلك؟ ... هذه أول مرة أسمع فيها أن للنفاق قيمةً يحرص عليها الإنسان!

– أما أنا فقد سمعت أن النفاق له قيمة كبرى في الأسواق العالمية، وأن أجود أنواعه يُوجَد في مصر، كما يُوجَد فيها أجود أنواع القطن.

– يظهر أنك استقيت معلوماتك من مصادر خبيرة.

– لقد خُيِّل لي أن النفاق الطويل التيلة ...

– ماذا تقول؟!

– نعم ... إنه كالقطن ... ألا ترى هذا؟! ... ولعل السبب في تفوُّقه وتميُّزه بطول تيلته، أنه يمتدُّ إلى الطرفَين: الفرد والمجتمع؛ فمثلًا من الجائز أن يعتنق الفرد رأيًا مخالفًا

للجماعة، فتنهض ضده الجماعة فيقبع في داره صامتًا ... وهذا ما يحدث في كل بلد آخَر. أما هنا فيحدث غير ذلك ... فلقد أخبروني أن أفرادًا قاموا يُنادون بأفكار حرة، فاتَّهمهم الناس بالإلحاد، فلم يكتفوا بالصمت، بل قاموا في اليوم التالي يحملون المسابح الكهرمان، ويرتدون العمائم الخضر ... وآخرين عرفهم المجتمع من أهل الخمر والسكر، فلم يكتفوا بالتوبة الصامتة، بل راحوا يتزعَّمون حركات الحضِّ على الورع، ونساء يرتكبن في السر الفجور، وينادين في العلن بالفضيلة، وسياسيين قد خلق الله لكلٍّ منهم وجهًا واحدًا، فصنعوا هم لأنفسهم وجوهًا عدة، يستقبلون بها كل حكومة تقوم أو كل أزمة وزارية تطرأ ... وأُسَرًا وعائلات تُوزِّع فيما بين أعضائها المبادئ والأحزاب، كما يُوزِّع الله بين عباده القسم والأرزاق ... ومرءوسين يداهنون الرؤساء على حساب الدولة، ورؤساء يراءون الشعب على حساب المصلحة ... وسيدات يُرِدن العبث واللهو ويَقُلن للناس إنه البر والخير ... وأهل دين يملئون الصحف ضجيجًا حول الأخلاق، ويدقُّون طبلًا ضد الرذيلة، وما يقصدون في سريرتهم غير التظاهر والإعلان ... ورجال تقوى يأمرون الناس بالعفة، ويستثنون أنفسهم وذويهم.

هذا بعض ما يتعلق بالطرف الأول وهو الفرد. أمَّا الطرف الثاني، وهو المجتمع، فله نفاقه أيضًا:

فقد بلغني في ذلك أنه ما من مجتمع في غير مصر يستقبل المجرم الخارج من السجن بالموسيقى والمزمار كما يستقبل الحاج القادم من الحجاز! ... وهذا المجتمع يشمئز من اللص والآثم، والشرير والفاجر، ولكن لو ابتسم الحظ لواحد من هؤلاء فنال سلطة أو أصاب ثروة، فسرعان ما يبتسم له المجتمع أيضًا، ويستقبله استقبال الأمجاد الأبطال، بل إن المجتمع ليعرف التاريخ المخجل لهذا المليونير، والماضي المزري لذلك السياسي، فلا يمنعه ذلك من حملهما على الأعناق.

هكذا يُرائي المجتمع الفرد، ويُداهِن الفرد المجتمع، ولا يدري أحدٌ أيُّهما مصدر النفاق ... لذلك قيل إن النفاق يصل أحدهما بالآخر، فلا نعرف أيُّ الطرفين مصدر الآخر ... وكل الذي نعرفه أن النفاق ممتدٌّ بينهما، يربطهما بخيوطه المتينة ... وهذا سرُّ وصفه بالتيلة الطويلة ... فما قولك في هذا؟ ... وهل تراني ألممتُ بالموضوع؟

– إني أراك بحرًا فيَّاضًا، وأدهَشُ كيف تسألني أن أُعلِّمك النفاق وأنت واسع الاطلاع فيه على هذا النحو؟!

– لا موجِب للدهشة؛ فأنت تعرف أن العلم النظري شيء ووسائل التنفيذ شيء آخر ... فكل بلد يدرس تاريخ الثورة الفرنسية، ولكن ليس من السهل أن تحدث ثورة فرنسية

في أي بلد! ... وأنا كذلك درست تاريخ نفاقكم، ولكن ليس من اليسير أن أُحدِث مثله في مجتمع بني جنسي!

– لستُ أرى في الأمر صعوبة ... إنه في غاية البساطة ... أنا مثلًا صاحبك الذي تخافه وتهابه، ولك عنده مصالح ومآرب ... انظر إلى وجهي: ألا تراه جميل الصورة؟!

– أبدًا.

– لا تنظر بعين رأسك؛ انظر بعين مصلحتك!

– لستُ أعرف لي سوى العين التي في رأسي.

– هذه العين افقأها إذا كنت تريد أن تتعلم النفاق!

– أفقأ عيني وأصير أعمى؟!

– هذا هو الشرط.

– وبماذا أرى الأشياء؟

– بعينك الأخرى: عين مآربك.

– إذن لو أردتُ إدخال النفاق في مجتمع بني جنسي، ينبغي لي أن آمُر جميع الحمير أن تفقأ عيونها التي في رءوسها؟

– في الحال.

– وأن تُحوِّل مجتمعنا إلى مجتمع من العميان؟!

– بالضبط.

– وهل تظن دولة الحمير تقبل ذلك؟

– ولِمَ لا؟ ... إذا كنا نحن قد قبلناه!

– اسمح لي أن أقول لك ...

– صه ... أعرف ما ستقول، ولا داعي للإهانة!

وهنا كان الصديقان قد أقبلا عائدَين، فأومأتُ إلى حماري بالصمت ... وغمزتُ له بعين رأسي وأنا أقول مشيرًا إلى صاحبنا المُترهِّل منشدًا:

أهلًا وسهلًا بالرشاقة كلِّها بالشورت والأكمام فوق الكرش!

حماري والكفاح

قال لي حماري، وقد ذهبنا نمضي الشطر الأخير من الصيف في الإسكندرية، وننعم ساعة الأصيل بالسير الهُوَيْنا على الكورنيش: الحق ... إني مغتبط ها هنا ... أين المشي المريح فوق هذا الأسفلت الناعم من المشي في رأس البر، فوق الرمال التي كانت تغوص فيها حوافري؟!

– صدقت!

– إني أراك لا تكره المشي هنا.

– أصبت.

– عجبًا! ... ما بالك ساهمًا مطرقًا!

– اسكت! ... إنك تُحرِجني مع أصدقائي ... كلَّما مشيتُ مع صديقٍ في الطريق، ظنَّ الناس أنه حماري!

– وما ذنبي أنا إذا كان الناس يريدون أن يتملَّقوا أصدقاءك؟

– أغلِق فمك من فضلك، ودعني أنسَ وجودك إلى جانبي لحظةً!

– سبحان الله في طبعك! ... ما هذا المزاج العكر، والهواء جميل خالٍ من الرطوبة هذا العام، والبحر صافٍ، والغيد في الإسكندرية حِسَان ... والنساء في السراويل والبجامات بأحمرهن وأبيضهن كأنهن جوقة «بلياتشو» في «سيرك» متنقل!

– صه ... لا تُحدِّثني عن النساء!

– ألستَ أنت الذي دعاهنَّ إلى ارتداء هذه السراويل؟!

– تلك فكرتك أنت أيها الحمار!

– أيُعقَل أن تخطر ببالي أنا فكرة حشر مثل هذه الأجسام البضَّة المائعة في هذا النوع من الثياب؟ ... انظر إلى هذه المرأة البدينة وقد صرَّت لحمها المترهِّل صرًّا في البنطلون، وهو يأبى أن يتماسك، فصارت كأنها طبق «ألماظية» متفكك سائل؟!

– لا تُبالِغ.

– انظر بعينك ... ما عليك إلَّا أن تنظر إلى هذا السرب السمين.

– أنا لا أنظر إليهن قط.

– يا للعجب! ... ما من مرة خطرت قربنا حسناء إلا ورأيتُ عينك تكاد تأكلها أكلًا بلحمها وعظمها وثوبها!

– كذَّاب!

– أتُقسِم؟

– أُقسِم ... إني لا أنظر غير نظرة خاطفة، وهذا حقي شرعًا كما هو وارد في كتب الفقه والدين؛ فقد جاء فيها: «لك في الشرع نظرة واحدة لاحتمال أن يكون القادم أسدًا.»

– وهل من المُحتمَل أن يقبل علينا أسد في هذا الكورنيش؟!

– اخرس يا حمار ولا تُجادِلني!

– هذا ليس جوابًا مقنعًا.

– افهم أنَّ لكل زمان مخاوفه، ولكل مكان مخاطره، وتلك كانت المخاوف في عهد العرب والبادية والصحراء ... أما في عصرنا الحاضر، فقد تغيَّر نوع الخطر، وإن لم يتغيَّر المبدأ، فبدل الوحش الهاجم، أصبحت السيارة المسرعة.

– لست أرى سيارة أمامنا، ولكني أرى دبابة.

– دبابة؟! ... أين هي؟

– تلك المرأة المقبلة، فلنُخلِ لها الرصيف، ولنهبط إلى الطريق، إذا أردنا لأنفسنا السلامة.

– هذا أيضًا، كما ترى، نوع من مخاطر العصر الحديث!

– والكواعب الفاتنات، كأنهن نسيم البحر، أعارته يد السحر أرديةً من أجساد الحور الخالدات!

ما شاء الله! ... الحمار انقلب شاعرًا!

– أَجِب ولا تُراوِغ ... ما تقول في هذه الباقة المقتربة من الفتيات، ذوات المناديل الدِّمَقْسِيَّة المختلفة الألوان فوق شعورهن، من هو البستاني العبقري الذي نسَّق هذا البهاء؟ ... أهي المُصادَفة التي جمعت بينهن على هذا النحو؟ ... أم هو التدبير السابق فيما بينهن، والاتفاق المُبيَّت على أن يُصبِّحن على الناس متفتحاتٍ في هذه الألوان الزاهيات؟! ... تكلَّم ... انطق! ... ما هذا السكوت؟!

– هذا كذلك خطرٌ من صنف آخر.

– بل هي متعة ... بل هي فتنة ... بل هو النعيم!

– عجبًا! ... ماذا جرى لك أيها الحمار؟!

– يا إلهي! ... ما الذي صنعتُ في عامي من جلائل الأعمال لأستحقَّ هذا التصييف البديع!

– ما هذا القول السخيف؟! أَوَكُلُّ هؤلاء «المُصيِّفين» قاموا في عامهم بأعمال يستحقُّون من أجلها هذه الراحة الناعمة؟!

– لستُ أتكلَّم عن هؤلاء «المصيفين» ... إنما أتكلَّم عن نفسي بصفتي حمارًا من أسرة الحمير.

– أنعِم وأكرِم!

– لا تهزأ بي، ولا بجنسي؛ بل اهزأ أولًا بنفسك وبجنسك! ... فنحن فصيلة قد اشتُهِرَت بالكد والجد. لقد عرفت ظهورُنا أشقَّ الأعمال، ولم تأنف من حمل أخس الأحمال ... ما من ظهر فينا رفض «غبيط» السماد، وما من واحد بيننا تذمَّر من كثرة العمل وطول ساعاته، أو من رداءة العلف وقلة دسمه ... ما نحن إلا الجلَد والعزم والصبر قد صُوِّرت مخلوقًا حيًّا، لنكون قدوة لأمثالكم من الكسالى المترفين ... ولكنكم لا تُبصِرون، ولا تريدون أن تفتحوا أعينكم حتى على خيبتكم الماثلة! ... ما من واحد فيكم يريد أن يعرق ليستحقَّ لقمته ... موظفكم ينظر إلى ساعة الانصراف ولَمَّا يبدأ في العمل، ويهمُّه المرتب والترقية ولا يعنيه الإنتاج، فإذا نُقل إلى «الصعيد»، هاج وماج ... وطلَّابكم يريدون أن يجتازوا الامتحانات بغير درس، ولا يعنيهم العلم في ذاته؛ بل يطلبون شهادة تُغطِّي فيهم الجهل، وتفتح لهم الخزائن وتصعد بهم الدرجات ... وعمَّالكم يُفكِّرون في زيادة الأجر وإنقاص العمل، ولا يهتمون بالإتقان ولا بمصالح «الزبون»، ورؤساؤكم يعنيهم أن يُنشر عنهم أنهم قاموا بكذا ونهضوا بكذا، ولا يهمُّهم بعد ذلك قيام حقيقي أو نهوض، وشبابكم أصبح مَثَلُه الأعلى يتلخَّص في كلمتين: «سيارة وفتاة»، ولا يعنيه كيف يحصل عليهما، بل كل أمله وهدفه أن يَظفَر بهما من غير جهدٍ ولا جهاد ... إن شعار الكثيرين فيكم اليوم هو: «إن السماء يجب عليها أن تمطر ذهبًا وفضةً ونحن قعود!» ... الحلم الذهبي للجميع الآن هو الثراء والإثراء بغير مجهود ... إن الحرب قد حقَّقت بالفعل لبعضكم هذا الحلم، ولكن ماذا أنتم صانعون في زمن السلم؟ ... بأي سلاح تواجهون التنافس العظيم على الإنتاج، والصراع الشديد على الأرزاق؟ ... أبمبدأ «الجهد الأدنى والغنم الأسنى» الذي اعتنقه الكل فيكم من شبابكم إلى شيبكم؟!

– حقًّا تلك مشكلة لا أدري لها حلًّا!

– حلها بسيط.

– ما هو؟

– أن تعتنقوا مبدأ فصيلتي: «لا راحة بغير عمل، ولا لقمة بغير عرق، ولا ثروة بغير إنتاج.»

– نعتنق مبدأ الحمير؟!

– ولِمَ لا؟

– في الحق، إن التطاحن في الغد هائل ... وإن حرب السلام ستكون علينا أشقَّ وأعنفَ من حرب الدماء ... ولقد أردنا أن نُجنِّب أنفسنا الويلات في كل ميدان ... وأن نهرب بجلدنا من وخزة الدبوس ولذعة «الناموس»، ولكن ...

– ولكن آن الأوان لتعرفوا معنى الصبر والجلَد والعمل.

– سنعرف، وستُرغِمنا الحياة غدًا على أن نعرف.

– اليوم خمر وغدًا أمر ... هلمَّ بنا إلى ستانلي، وسيدي بشر، وجليم!

– مهلًا ... ضميري غير مستريح ... وأنت المسئول ... ماذا قدَّمنا من عمل في عامنا لنكون جديرين بهذا اللهو والمرح؟!

– قدَّمنا ...

– كم غبيطًا من السماد حمل ظهرك؟

– أنت تعرف أني لا أحمل اليوم سمادًا، بل أفكارًا.

– يا له من تدهور!

– لا تدهور ولا تقدُّم ولا تأخُّر ... ما الأفكار سوى نوع من السماد ... وحامل الأفكار كحامل السماد ... وما أنت في الحقيقة غير نوع من ... الحمير!

– أشكرك!

حماري والجنة والنار

جلس حماري إلى جانبي ذات ليلة ... وكانت الليلة مقمرةً، والسحب الرقيقة البيضاء لها هفيف يُرَى ولا يُسمَع، كأنها أجنحة الملائكة ... كان كل شيء من حولنا يجعل النفس تحلم أو تغوص في أعماق الخيال ... حتى حماري أطبق عينَيه نصف إطباق، وبدا عليه أنه يريد هو الآخَر أن يحلم ... ولم ألبث فعلًا أن سمعته يهمس قائلًا: ماذا بعد الموت؟ ... الجنة والنار؟

– طبعًا.

– وأنت في أيِّ مكان منهما ستكون؟

– من باب التواضع أقول لك: في النار.

– لو كان لك خيال حقًّا لتصورتَ الآن مصيرك ... ما قولك لو حاولتَ الآن اختراق حجب الغيب؛ لتصف لي ما سوف تجد في النار من المعارف والأشخاص والأشياء.

فسكتُّ لحظة أفكر ... وقد أثار في نفسي قول حماري رغبةً حقيقيةً في تخيُّل ذلك ... ولم يَمْضِ قليل حتى صِحتُ فيه قائلًا: اسمع ... إني أتخيَّل الآن ثلاثة مناظر تجري على هذا النحو:

المنظر الأول

(جنة الخلد بأشجارها وأطيارها وفاكهتها وكوثرها والصحفي أحمد الصاوي محمد جالس القرفصاء، كئيبًا حزينًا مُفكِّرًا، مُسنِدًا رأسه الأصلع إلى جذع شجرة دانية القطوف.)

إحدى الحوريَّات (تمرُّ بالصاوي فتصيح): عجبًا! «ما قلَّ ودل» هنا؟!

الصاوي (يرفع رأسه وينظر إليها): أيُدهِشك ذلك يا آنستي؟ ... صدقتِ والله ... أنا نفسي مندهش ... نعم، «ما قلَّ ودلَّ» هنا، بلا «أهرام»، ولا «مجلتي» ولا مطبعة ولا «كليشهات»! ... حتى ولا عزبتي التي كانت على ترعة المنصورية!

الحورية: أراك ضَجِرًا.

الصاوي: لقد أكلتُ من الفاكهة حتى تلفت أحشائي، وشربت من الكوثر حتى انتفخت بطني، وتسلَّقت الأشجار، وجريت وراء الأطيار ... أتعرفين أيَّتها الآنسة أن شجر المانجو هنا هو من نفس نوع المانجو الذي عُنِيت بزراعته في عزبتي؟ ... لا بد أنهم جاءوا بالبذور من عزبتي ... آه، إنها لذكرى حلوة، ولكن ما بعد كل هذا؟

الحورية (باسمة): أغازلتَ الحور؟

الصاوي: طبعًا ... هذا أول ما حصل.

الحورية: أَوَلَم يملأك هذا سرورًا وسعادةً؟

الصاوي: اسمعي أيَّتها الآنسة (يستدرك) ... أيَّتها الحورية! ... لا شيء يُسعِدني في هذه الجنة إلا أمر واحد: إصدار «مجلتي»، هنا كالمعتاد، نصف شهرية ... (ينهض بقوة) لقد اختمرت الفكرة في رأسي طويلًا ... إن أهل الجنة في أشدِّ الحاجة إلى مجلة تُقدِّم لهم خلاصة أدب العالم وقصصه ومسرحياته، وروائع الأدب المصري ... كلا، لم يَعُد هنا مصري الألفاظ ولا فرنسي ... لا بأس، نبحث فيما بعد عن التي تلفت الأنظار، وعن وسائل الإعلان التي تجتذب المشتركين والمشتركات ... على أني أبدأ بتوجيه النداء إلى الذين انضمُّوا إلى أسرة مجلتي في الدنيا؛ فهم أَوْلى بالاستمرار في المساهمة، ومَن بادر منهم تمتَّع بالاشتراك المُخفَّض، مع حفظ الحق في الهدايا، بمثل ما كان يتمتَّع به في الدنيا.

الحورية (باسمةً): حتى يعلم المشترك أنه مع الصاوي يكسب دائمًا.

الصاوي (باسمًا): في الدنيا والآخرة!

المنظر الثاني

(الصاوي بين يدَي سيدنا رضوان عليه السلام على مقربة من باب الجنة.)

رضوان (كالمُخاطِب نفسه): ماذا أسمع! ... مجلة في الجنة؟!

الصاوي: وما الضرر؟! ... إنها لفكرة بديعة يا سيدنا رضوان! ... إن هذه المجلة ستكون لسان حال المؤمنين والمؤمنات ... نعم، خصوصًا الأخيرات من الحور الجميلات؛

فإني كنت في الدنيا أعرف كيف أكتب فأُرضِي النساء ... ثِق أن مجلتي هنا سيكون لها رواج وانتشار، وستطرد الملل من الصدور ... إني قد أعددتُ كل شيء لإصدارها في ثوب قشيب، مُحلَّاة بالصور ذات الألوان ... إنه لا ينقصني سوى الكتَّاب والأدباء الذين كانوا يُمِدُّونني بمقالاتهم في الدار الفانية.

رضوان: ألم تَرَهم هنا؟

الصاوي: لم أرَ منهم واحدًا هنا.

رضوان: قد خانك — ولا ريب — النظر رغم منظارك السميك ... من تريد منهم وأنا أدلُّك عليه؟

الصاوي: أريد الحاج!

رضوان: أيُّ حاج؟ ... الجنة مكتظَّة بالحجاج.

الصاوي: الحاج هيكل!

رضوان (يفكر قليلًا)**:** هيكل؟ ... صدقتَ ... إنه ليس هنا.

الصاوي: سبحان الله! ... مؤلف «حياة محمد»؟!

رضوان: لا تعترض يا هذا ولا تكفر!

الصاوي: اللهم لا اعتراض! ... (لنفسه همسًا) تُرَى، ماذا صنعتُ أنا من الحسنات حتى أدخلوني ها هنا؟!

رضوان: أتُرِيد أن تسأل عن أحد آخَر؟

الصاوي: أريد أن أسأل عن العقاد، مؤلف كتاب «عبقرية محمد».

رضوان: العقاد ليس هنا.

الصاوي: يا للعجب! ... يا للعجب!

رضوان: عمَّن تريد أن تسأل أيضًا؟

الصاوي: أريد أن أسأل عن «توفيق الحكيم»؛ فقد كان ألَّف في دنياه كتاب «محمد».

رضوان: توفيق الحكيم! ... ليس هنا كذلك هذا المخلوق.

الصاوي: سبحان الله! سبحان الله!

رضوان: هات غيره!

الصاوي: دُلَّني إذن على «طه حسين»؛ فقد كان ألَّف كذلك في دنياه «على هامش السيرة».

رضوان: طه حسين! ... ليس هو أيضًا هنا.

الصاوي: اللهم عفوك ورحمتك!

رضوان: لا تعترض يا هذا ولا تكفر!

الصاوي (همسًا): لا اعتراض ولا كفر ... قد فهمتُ الآن ... ما أدخلني أنا الجنة إلا كتاب «باريس»!

رضوان: بِمَ تهمس؟

الصاوي: يا سيدنا رضوان! ... لي عندك رجاء ... أتأذن لي في الذهاب إلى النار مدة نصف ساعة فقط ثم أعود؟!

رضوان: ماذا تصنع هناك؟

الصاوي: أقابل هؤلاء الأربعة المساكين، وأتناول مع كلٍّ منهم «فنجان قهوة»، أفتتح به الأعداد الأربعة الأولى من مجلتي في عهدها الجديد.

رضوان: ماذا تقول؟! ... تتناول «فنجان قهوة»، في الجحيم!

الصاوي (فرِحًا): نعم، فنجان قهوة مع «...» في الجحيم! يا له من حديث صحفي عجيب مبتكَر لم يسبق له مثيل في صحافة العالم ... نعم، سأفتتح به الصفحة الأولى، وأُزيِّنه برسم هزلي بريشة مسيو «سانتيز»!

رضوان (في عجب): أَوَتَحسب يا هذا أنَّ في الجحيم «قهوة» من بن؟!

المنظر الثالث

(في الجحيم، الصاوي بين اللهب والدخان، يمشي بخُطًى وئيدة يتصفَّح الوجوه.)

الصاوي (يرهف السمع): أسمع ثرثرة! ... يُخيَّل إليَّ أني أعرف صاحب هذا الصوت الجَهْوَري ... فلأقترب منه ... عجبًا! ... هذا الدكتور طه حسين! ... تُرى، ما سبب صخبه وضجيجه؟

طه حسين (يَصِيح فيمن حوله): نعم، إني غير راضٍ عن الحياة هنا ... إنها فاترة راكدة، لا يظهر فيها نشاط ولا إنتاج فحسب، بل قد يمضي العام كله، بل قد تمضي الأعوام كلها دون أن يظهر في الأفق حدث من الأحداث. وهذا الركود مؤلم حقًّا إذا قارنَّاه بذلك النشاط الغريب الخصب الذي ظهر في حياتنا الأدبية في الدار الفانية ... فقد كان هذا النشاط قيِّمًا حقًّا، لفَتَنا إلى أنفسنا، ولفت الناس إلينا، فإذا نحن نرى من أنفسنا ما لم نكن نرى من قبل ... نشهد ابتكارًا في الرأي، واجتهادًا في التفكير، وإنتاجًا في الأدب،

وخصومات تُثَار حول هذا كله فنُضيف ابتكارًا إلى ابتكار، واجتهادًا إلى اجتهاد، وإنتاجًا إلى إنتاج ... لا نكاد ننظر في صحيفة أو مجلة إلَّا رأينا مظهرًا لهذه الحياة الخصبة، وكان الرأي العام نفسه يشاركنا في هذا النشاط، فكانت الجماهير ترضى حينًا وتسخط أحيانًا، وتؤيد تارةً وتُقاوِم تارةً أخرى.

(جماعة من أهل الجحيم تتفصَّد أجسامهم عرقًا، ويتأوَّهون من عذاب النار يلتفتون نحو طه.)

الجماعة: اتقِ الله يا شيخ! ... ألا ترى ما نحن فيه من عذاب؟! ... أيُّ إنتاج وأيُّ نشاط في هذا البلاء؟!

رجل من الجماعة: اتركوه ... إنه أديب!

الجماعة: أَوَلَيس الأديب آدميًّا؟ ... ألا يشعر هذا الرجل بألم السعير وعذاب الجحيم؟!

طه حسين: إنما الجحيم حقًّا هو العيش بين هؤلاء الهامدين!

(يذهب الأديب.)

الصاوي (يُسرِع خلفه)**:** يا دكتور! ... يا دكتور طه! ... إنه يُسرِع في خطاه ولا يسمع صوتي من هرج الناس ... عجبًا! ... هذا رجل يشبه العقاد؛ بل هو العقاد بعينه ... نعم، هو بقوامه المعتدل المديد كالرمح الصلب، ما باله يسير هكذا يتصفَّح جوانب الطرقات كأنه يبحث عن شيء؟!

العقاد (يصيح نافد الصبر)**:** مكتبة يا ناس! ... ألا توجَد هنا مكتبة واحدة؟! ... ما هذه المخلوقات التي لا تقرأ؟! وأنا الذي جاء النار برضاه واختياره، حاسبًا أنه يجد فيها الجبابرة من الفلاسفة والمُفكِّرين، والقيِّم من الكتب والمكتبات!

الصاوي: يا أستاذ عباس! ... أيُّها الأستاذ العقاد!

العقاد (لنفسه)**:** إنه الجحيم ... إن هذا لهو الجحيم المقصود.. إن المكان الذي لا يوجد فيه اطلاع ولا نعرف فيه قراءة، ولا يُسمَح فيه بتفكير، لا بد أن يكون هو الجحيم!

الصاوي: أيُّها العقاد! ... ما باله لا يسمعني؟! ... لقد انصرف ... لقد اختفى! ... آه، لقد تعبت ... وأخشى أن تفوت نصف الساعة فيُقفَل دوني باب الجنة ... عجبًا! ... هذا رجل كهيكل ... كأنَّا به يبحث عن أحد بين الجموع ... نعم، هو الدكتور هيكل بعينه! ... تُرى، عمَّ يبحث؟!

الصاوي (ينادي): يا دكتور هيكل!

هيكل (لنفسه يائسًا): لستُ أجد هنا صديقًا ولا أديبًا! ... أين زملاؤنا؟ ... لماذا لا يتقابل هنا الأدباء ورجال الفكر والقلم؟! ... إن عذاب النار — بالغًا ما بلغ — لا يؤلم نفسي قدر ما يؤلمها سبب إدخالي هذا المكان ... لا سيما وأنا الذي ...

الصاوي: يا حاج! ... يا حاج! ... إنه لا يسمع ندائي!

هيكل (ماضيًا في كلامه): أنا الذي قمت بالدعوة للإسلام ولمحمد بما لم يَقُم به ألف أزهري وأزهري ... ومع ذلك فلنصبر صبرًا جميلًا (يصيح بأعلى صوته) ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

جماعة من الأزهريين (بقربه، ساخرين صائحين): ولو!

هيكل (ملتفتًا إليهم): إن بعض الناس ما زالوا يرتابون في صدقي وإخلاصي ... أولئك هم الحمقى ... أو مَن في قلوبهم مرض! ... فلنترك لهم المكان.

(يبتعد.)

الصاوي (في أثره): يا هيكل! ... يا حاج هيكل! ... لقد انطلق مسرعًا ولن أستطيع اللحاق به! ... (يلتفت إلى إنسان عن كثب فيصيح) يا للغرابة! ... هذا «توفيق الحكيم»، يمرُّ هناك بين اللهب مُلوِّحًا بعصاه، مرتديًا معطفه الصوفي الأسود، وهو ينظر يمينًا وشمالًا، خائفًا من وجود «تيار هواء»!

توفيق الحكيم (يبحث حوله): أين «موزار»؟ ... لَكَمْ تُقْتُ إلى رؤية هذا الموسيقي في الدار الآخرة! ... لكن من المستحيل أن يكون هنا صاحب تلك الألحان السماوية! لقد كان — حتى في دنياه — على اتصال بالفردوس ... نعم، «موزار» الإلهي هو من أهل الجنة بلا مراء!

الصاوي (يخطو نحو توفيق الحكيم صائحًا): يا عدو المرأة!

(جماعة من نساء النار يسمعن صوت الصاوي فيُقبِلن في هرج.)

النساء (صائحات): أين هو عدو المرأة؟

الحكيم (يُلقي عليهن نظرة شاملة): ما كل هؤلاء؟! ... لم يكن عندي ريب في أن تسعة أعشار أهل الجحيم من النساء!

النساء: خسئت! ... لا شيء يُعزِّينا ويُثلِج صدورنا مثل إدخالك السعير!

الحكيم: وأنا لو لم أجدكنَّ هنا، لاختلط عليَّ الأمر وحسبتُ أني في الجنة!
النساء (يلتقطن أحجارًا ملتهبةً يقذفنه بها)**:** خذ إذن جزاءك.
الحكيم: صدَّقتُ الآن وآمنتُ أني في الجحيم!

(يبتعد عنهن هاربًا.)

الصاوي (صائحًا)**:** يا توفيق الحكيم! ... إنه لا يسمع ندائي ... ما بالهم كلهم كأنَّهم صمٌّ لا يسمعون ندائي؟! ... يا عدو المرأة! ... إنه فر هاربًا وهنَّ في أثره بالحجارة! ... لا أمل لي في مخاطبة واحد من هؤلاء الأربعة، فلأرجع من حيث أتيت قبل أن ...

(يسير نحو باب الجنة.)

رضوان (يصيح)**:** فات الوقت! ... وانقضى نصف الساعة، وأُغلِق دونك باب الجنة أيها الكافر بنعمة ربه! ... لقد سعيتَ إلى النار بقدمَيك شوقًا إلى أهلها، فالبث فيهم واجرع معهم ما شئتَ من «فناجين القهوة»!
جماعة من أهل النار (يتساءلون)**:** يا للعجب! ... من هذا الإنسان الذي أُدخِل الجنة فتركها وجاء بقدمَيه إلى النار؟!
رجل من الجماعة: لا بد أنه صحفي.
الصاوي (صائحًا متضرعًا)**:** يا سيدنا رضوان! ... عفوك ورحمتك! ... لقد شغلني عن الوقت حرصي على مقابلة الكتَّاب وجمع المقالات! ... ولكن رحماك! ... افتح لي الباب هذه المرة؛ فإني قد تبتُّ إلى الله وإليك، ولك عليَّ عهد وميثاق ألا يذكر لساني كلمة مجلة في الجنة بعد اليوم ... فإني سأعيش كبقية عباد الله الصالحين، آكل الأثمار وأُسامِر الأطيار وأُغازِل الحور!

فبراير ١٩٤٥م

هنداوي